في المواجهة:
الشباب وتغير المناخ

حالة سكان العالم ٢٠٠٩

UNFPA

ملحق الشباب

في المواجهة:
الشباب وتغير المناخ

حالة سكان العالم ٢٠٠٩

ملحق الشباب

المحتويات

تصدير د

مقدمة هـ

مارجوري

فلبينية تعمل في صيد الأسماك الصدفية بالمياه الدافئة

١

مريم

مريم: امرأة من النيجر ومن أعضاء مصرف الحبوب ، وهي تحظى بالاحترام اللازم ، وتقوم بتأمين الغذاء

٧

فريق التحرير

ملحق الشباب لتقرير حالة سكان العام ٢٠٠٩

مارتين كاباروس (قصص الحياة) ، والدكتورة لورا لاسكي وفيكتور بيرنهاردتز

المساعدة الإدارية

ملك خطيب ـ مالح

شكر وتقدير

خالص الشكر والامتنان لكثير من الزملاء في صندوق الأمم المتحدة للسكان الذين يعملون بالمكاتب القطرية وبالمقر ، إضافة لشركاء الصندوق ، إزاء ما قدموه من مساهمات وما تقاسموه من معلومات ، مع إهداء تقدير خاص للمكاتب القطرية في الفلبين والنيجر والمغرب ونيجيريا ، وكذلك للمكتبين الإقليميين للدول العربية ولمنطقة المحيط الهادئ ، فهذه المكاتب قد قدمت المساعدة والنصح والتيسيرات اللازمة لإجراء المقابلات مع الشبان الذين وردت قصص حياتهم في هذا المنشور .

وثمة تقدير استثنائي لويرنر هوغ وبراتيك أواشي وصابرينا جوران وريتشارد كوللودج وزياد ميقاتي وساسكيا شيليكينز والدكتور دانييل شنسول إزاء مساهماتهم وتأييدهم ، وبصفة خاصة لمارجوري ومريم وميسياس وكيلوم ومنديسا ويونس وفاطمة ، ممن شاركونا قصص حياتهم .

في المواجهة: الشباب وتغير المناخ

ميسياس
مقيم بالمجتمع الأمازوني ومن رواد الزراعة المستديمة
١٣

كيلوم
من نبلاء جزر مارشال ، ولا ينوي مبارحة جزيرته
١٩

منديسا
أمريكية ومن الأعضاء المنظمين بحركة الحرية المعنية بالاستجابة للكوارث
٢٥

يونس
لاعب كرة قدم من المغرب يحاول التكيف مع حياة جديدة
٣١

فاطمة
ناشطة من نيجيريا وعضوة تنظيمية ، وقد كفت عن استعمال خشب الوقود ، وتستعمل الهاتف الخلوي بدلاً من ذلك
٣٧

خاتمة ٤٢

الحواشي ٤٤

في المواجهة: الشباب وتغير المناخ

تصدير

هذه هي الطبعة الرابعة من ملحق الشباب لتقرير صندوق الأمم المتحدة للسكان عن حالة سكان العالم. وهذا الملحق يتناول تغير المناخ والشباب، من خلال منظور ماهية الآثار المتوقعة لتغير المناخ، وماذا يعني ذلك بالنسبة لحياة الشباب وسبل معيشتهم وصحتهم وحقوقهم وتنميتهم. وملحق الشباب يستكشف هذه القضايا، فشباب اليوم ستكون لهم الصدارة في العقود القادمة، حيث سيواجهون التحديات التي يفرضها تغير المناخ.

وعلى نحو ما سيتبين من هذا الملحق، يلاحظ أن الشباب سيعالجون ما يترتب على تغير المناخ من تهديدات وفرص، سواء كان ذلك من اختيارهم أم من الأمور المفروضة عليهم، وسواء كانوا يرغبون في هذا أم لا. وبعض الشبان الذين وردت قصص حياتهم في هذا الملحق قد استهلوا مرحلة النضج ولديهم اهتمام كبير بشيء بالغ الاختلاف، ولكنهم غيروا من اتجاههم بعد إدراكهم لقضية تغير المناخ وتحققهم من مدى صلتها بحياتهم ومجتمعاهم.

والشباب اليوم من كافة أنحاء العالم يقفون الآن ويطالبون بإيلاء الاهتمام الواجب بموضوع تغير المناخ. وهم يشعرون بالغضب إزاء تلك التصورات التي تبدو حتمية في بعض الأحيان، كما أنهم على ثقة من أن مساهماتهم ستأتي بنتيجة ما. والشبان المذكورون في هذا التقرير يدلون بقصص تتضمن لمحة عن تلك التأثيرات المحتملة لتغير المناخ بالنسبة لهم وهم من شتى المشارف والثقافات، مما يزيد من التعمق في فهم كيفية تغير حياة الشباب مع وصول التأثيرات المتوقعة لتغير المناخ.

وتغير المناخ ليس ظاهرة منفصلة، فهو على النقيض من ذلك سوف يؤثر على الشباب في كافة نواحي حياتهم. وتأثيرات تغير المناخ ستكون، في الكثير من الحالات، أشد قوة بالبلدان النامية، وهذا يعني بالتالي أن ذلك التغير سيهدد التنمية، فهو سيعوق الوصل للمياه والمرافق الصحية والأمن، من بين أمور أخرى. وفي حالة عدم قيامنا بتطبيق استجابات مناسبة لتغير المناخ، يراعى أن إعمال الأهداف الإنمائية للألفية سيكون في الواقع عرضة للخطر.

ومع وجود عدد من السكان لم يسبق له مثيل يعيش في هذا العالم، وعشية تلك الأحداث التي ستؤثر على هؤلاء السكان طيلة حياتهم، توجد أهمية حاسمة لتمكين وإشراك الشباب في الاستجابة لتغير المناخ. وحالات الفقر والتمييز والعلاقات الدينامية بين الجنسين تشكل كلها عوامل سوف تؤثر على كيفية اضطلاع الشباب بمهمتهم. وفي حالة عدم تزويد الشباب بوسائل من قبيل التعليم والصحة بما فيها الصحة الإنجابية، سيصبح تمكينهم وإشراكهم وإسهامهم من الأمور المتعذرة، أو على الأقل من الأمور العسيرة النجاح.

مقدمة

في المواجهة: الشباب وتغير المناخ

تغير المناخ:

"إن احترار نظام المناخ أمر لا غموض فيه، كما يتضح اليوم من ملاحظة تلك الزيادات في المتوسط العالمي لدرجات حرارة الهواء والمحيطات، وانتشار ذوبان الثلوج والجليد، وارتفاع المعدل الشامل لمستوى سطح البحر"[1].

والمناخ الذي يكتنفنا يتعرض للتغير بشكل بطيء وإن كان أكيداً. وفي جميع القارات وبغالبية المحيطات، يلاحظ وقوع تغييرات في النظم الطبيعية. والملاحظات ذات الصلة تتضمن، على سبيل المثال لا الحصر، التغييرات الحادثة في النظم البيولوجية للبحار والمياه العذبة، وحلول أحداث الربيع في وقت أكثر تبكيراً، وتقلص الغطاء الثلجي، وارتفاع درجة حرارة البحيرات والأنهار. وهذه كلها ظواهر ترجع إلى تغير المناخ، وإن كانت تعد في نفس الوقت دلائل مبكرة على ما قد سيحدث.

وانبعاثات غازات الدفيئة تمثل أكبر عامل من صنع الإنسان يساهم في تغير المناخ. والتكنولوجيات وعمليات التصنيع قد زودتنا بوسائل مبتكرة لتكوين الثروات وتحسين الأحوال الصحية، ولكن أسلوب معيشتنا، الذي يستند إلى أنماط غير مستدامة من أنماط الإنتاج والاستهلاك، قد أدى أيضاً إلى ارتفاع انبعاثات غازات الدفيئة بنسبة ٧٠ في المائة، فيما بين عامي ١٩٧٠ و ١٩٩٤، مع وقوع أكبر الزيادات في العقد الأخير من هذه الفترة. وفي حالة عدم القيام في القرن الحادي والعشرين بالحد من انبعاثات غازات الدفيئة على الصعيد العالمي، فإن من المحتمل بصورة كبيرة أن تكون آثار تغير المناخ أكثر شدة بالقياس إلى ما قد لوحظ بالفعل أو مما هو متوقع في يومنا هذا. وعلى صعيد المنظور الطويل الأجل، يمكن لتغير المناخ أن يتجاوز قدرات الإنسان وعوامل التخفيف الطبيعية في حالة عدم تقليل الانبعاثات[2].

الشباب في المواجهة:

في ملحق الشباب لحالة سكان العالم نلتقي، هذا العام، بسبعة من الشبان الذين اختبروا ظروفاً قد تزيد من تواترها وحدتها عند حلول آثار تغير المناخ على نحو واسع النطاق، أو ممن عاشوا في وسط هذه الظروف. ومن بينها الفيضانات وقلة المحاصيل الزراعية والمشاكل المتعلقة بالمرافق الصحية. وفي الوقت الذي يردد فيه البعض أن الأحداث التي مر بها الشبان الذين وردت قصص حياتهم في هذا المنشور تشكل بوضوح دلائل مبكرة على تغير المناخ، فإن هناك من يقولون أن من الصعب استنباط هذه النتائج. وما هو أكيد على نحو معقول، مع ذلك، يتمثل في أن القصص الواردة في هذا المنشور تعد أمثلة لما ستقدمه الحياة للمزيد من ملايين الشبان في المستقبل إذا لم نتخذ إجراء ما للتكيف مع تغير المناخ وتخفيف هذا التغير والحد من الانبعاثات الكربونية.

والفقر متصل على نحو لا ينفصم بالضعف المتعلق بتغير المناخ، وكذلك بالقدرة اللازمة للتكيف معه وتخفيف آثار حالات الطوارئ والتغييرات الدائمة لظروف المعيشة. والسكان الأشد فقراً لا يستطيعون على نحو كامل أن يصلوا إلى المياه والغذاء ومسالك العيش والهياكل الأساسية والصحة والمساكن والخدمات. ومن ثم، فإن انقطاع أو انخفاض الوصول لمثل هذه الأمور، مما يتوخى من جراء تغير المناخ، ستكون له آثار أشد وطأة بصورة غير متناسبة بالنسبة لمن

مقدمـــــــة

كانوا أكثر فقراً. وعلاوة على ذلك، يلاحظ أن المناطق التي يتوقع لآثار تغير المناخ فيها أن تكون أكبر حدة كثيراً ما يقطنها الفقراء من السكان.

والضعف المتصل بتغير المناخ له أيضاً جوانب تتعلق بالنوع الاجتماعي والسن: فالنساء يشكلن قرابة الثلثين من فقراء العالم وحوالي سبعين في المائة من مزارعيه، وهذا يعني أنهن سيواجهن أكبر قدر من التحديات بالعديد من المناطق الريفية[٣]. والفتيان من سن ١٠ سنوات إلى ٢٤ سنة يزيد عددهم عن ١,٥ بليون في العالم، وثمة ٧٠ في المائة منهم تعيش بالبلدان النامية. وبالتالي، فإن الفتيان، وخاصة الفتيات، يتسمون بضعف خاص إزاء تأثيرات تغير المناخ المتوقعة.

وشباب اليوم في طليعة من سيتأثرون بتغير المناخ. والإجراءات التي ستتخذ الآن من قبل الحكومات والقطاع الخاص والمجتمع المدني ستُحدد ما سوف يواجهونه في المستقبل، ومدى حسن استعدادهم للقاء ما قد يأتي. وهناك عدد كبير من شباب اليوم يعيشون بأجزاء من العالم ستكون موطناً لأشد تأثيرات تغير المناخ، وثمة حاجة ملحة لبحث مدى قدرتهم على مجابهة التحديات التي تعترض سبيلهم. وعند الاضطلاع بذلك، ينبغي النظر إلى حياة هؤلاء الشبان والفرص المتاحة أمامهم على نحو كلي.

وتغير المناخ يجيء في نفس وقت ذلك الاتجاه العالمي الراهن الخاص بالتحضر. ومنذ عام ٢٠٠٨، يراعى أن عدد من يعيشون في المناطق الحضرية يتجاوز عدد القاطنين بالمناطق الريفية، والكثير من هؤلاء هم من الشباب[٤]. وهذا يشكل تحدياً وفرصة في آن واحد، فالمناطق الحضرية تتسم بمستويات عالية من غازات الدفيئة، ولكنها توفر إمكانات للقيام بتنظيم إدارة الفضلات ونقلها، من بين أمور أخرى، على نحو يعد أكثر مواتاة للمناخ[٥]. والشبان في المدن يتميزون بثنائية مماثلة، فهم أكثر تعلماً من أبويهم، ولكنهم يواجهون احتمالات أكبر قدراً بأن يصبحوا من سكان الأحياء الفقيرة في نهاية المطاف، بالقياس إلى من هم أكبر منهم سناً[٦]. ومن ثم، فإنه إذا كان بوسع شبان المدن أن يستغلوا ما يحيط بهم من إمكانات بيئية، فإنه يجب الاهتمام بتحسين سبل معيشتهم.

والتقديرات تشير إلى أن ١,٢ بليون من الشباب سيصبحون من السكان الذين هم في سن العمل، وذلك في العقد القادم. وفي نفس الوقت، يلاحظ أن ما يزيد عن ٤٠ في المائة من العاطلين هم من الشباب[٧]. والافتقار إلى العمالة قد يفضي إلى حياة تتسم بالفقر، مما يعني أن الشبان ذوي الصلة سيُحرمون من فرصة اكتساب المهارات والوسائل اللازمة للاستعداد لآثار تغير المناخ والتكيف مع هذه الآثار. وقدرة الشبان على التكيف سوف تزداد وهناً في حالة عدم القيام بشكل ملائم بمعالجة شواغلهم الصحية، بما فيها الشواغل المتصلة بالصحة الإنجابية. ونقص الفرص والقدرات، إلى جانب التعرض لآثار تغير المناخ، يزيدان من حفز الشباب على الهجرة وترك مواطنهم وبلدان منشئهم.

وإذا كانت لدى الشباب القدرة على البت في موعد وكيفية تكوين أسرة لهم، مع حيازتهم للوسائل اللازمة لحمايتهم من فيروس نقص المناعة البشرية وبقائهم في صحة جيدة، إلى جانب حصولهم على فرص السكن وسبل المعيشة والوصول إلى أمور من قبيل المياه

المأمونة ، فإن هذا يعني أنه بوسعهم أن يكونوا أكثر استعداداً لمجابهة آثار تغير المناخ . وحالات الحمل غير المرغوب فيها والإصابات المنقولة بالاتصال الجنسي وفيروس نقص المناعة البشرية لن تكون من التحديات الكبيرة ، ومن ثم ، فإنه سيتضاءل احتمال تعويقها لقدرات الشباب على التكيف مع تغير المناخ والتخفيف من حدته . وعلى النقيض من ذلك ، يراعى أن التقاعس عن معالجة شواغل الصحة الإنجابية لدى الشبان قد يجعل الأمور أكثر صعوبة .

تكنولوجيات جديدة وحلول جديدة:

وفي ضوء تغير المناخ ، سيحتاج الشباب اليوم إلى الاضطلاع بالأمور على نحو مخالف للأجيال الماضية . وفي الواقع ، ومع انتقال الأجيال على مدار التاريخ البشري ، كان هناك دائماً تقدم وتطور وتحول لأنماط الحياة بفعل ما يقع من تغيرات . والفارق ذو الصلة يكمن في أن آثار تغير المناخ ستكره جيل شباب اليوم على الحياة بأسلوب يخالف أسلوب حياة آبائهم وأجدادهم ، حيث ستبرز مجموعة جديدة من العوامل النشطة ، وبعضها قد يجعل المعيشة صعبة إلى حد كبير . واستحداث تكنولوجيات وحلول جديدة لن يتأتى من مجرد الحاجة إلى زيادة الثروة والرفاه . وسوف تظهر ضرورة لاستحداث مخترعات وطرق جديدة لمجموعة متنوعة من الأنشطة البشرية ، ابتداء بالزراعة وانتهاء بالنقل ، إذا ما كان شباب اليوم يرغبون في التمكن من مواصلة النهوض أساساً بهذه الأمور .

وفي ظل الآثار المرتقبة لتغير المناخ ، سوف يضطر شباب كثيرون إلى الهجرة ، ولكن الهجرة كانت تجري طوال تاريخ البشرية بوصفها استراتيجية للتكيف مع التغيرات الحادثة ، في نفس الوقت . وفي حين أنه ستقع لا محالة بعض التغييرات ، من قبيل الهجرة ، يلاحظ أن الحصيلة النهائية في هذا الصدد ستتوقف على كيفية الاستجابة لها .

وفي مجموعة واسعة النطاق من المبادرات أثناء العقود الماضية ، سعى السكان إلى التماس طرق للمعيشة تتسم بضآلة ما ينبعث من غازات للدفيئة ، مع قلة مضار هذه الطرق ، وتميزها بمزيد من الانسجام مع كوكب الأرض . وكان ثمة تقدم محرز بكافة الجبهات تقريباً . ومن الحري بالخطوة التالية أن تكون متمثلة في إتاحة المخترعات الناجحة أمام مزيد من السكان ، وخاصة الشباب من بينهم ، مع التأكيد على مشاركة هؤلاء الشباب في تطبيق هذه الاختراعات ، كي يستطيعوا أن يمضوا بالشعلة إلى الأمام ، اليوم وغداً .

والعديد من الشباب الذين نلتقي بهم في هذا المنشور يشاركون في تلك الأنشطة ، مما يعطي أمثلة على أن الشباب بكافة أنحاء العالم لديهم طموحات قوية فيما يتصل بأداء واجبهم في ميدان التكيف لتغير المناخ والتخفيف من آثاره . والتزام الشباب برفاه العالم الذي يعيشون فيه حقيقة واقعة . ومع هذا ، فإن الطموحات ذات الصلة يجب أن تقابل بفرص لزيادة القدرات . وليس من الجائز أن يقتصر الشباب على الاستفادة من جهود التكيف والتخفيف ، فعلينا أن نتيح لهم فرصة الاضطلاع بدور نشط في صوغ وتنفيذ الاستجابات ، إذا ما أريد لهذه الاستجابات أن تكون متصفة بالاستدامة .

مارجوري

3فلبينية تعمل في صيد الأسماك الصدفية بالمياه الدافئة

كان أول ما لفت انتباهها هو الفضاء الذي يكتنف جزيرة زاراغوزا ، وكان كل شيء يبدو هائلاً ، فالسماء فسيحة للغاية والضوء في كل مكان والأشجار متوفرة بكثرة . ومارجوري قد قضت سنواتها الخمس الأولى بأحد الأحياء الفقيرة في مدينة سيبو ، عاصمة جزيرة سيبو بجنوب الفلبين . وكانت تعيش هناك في حجرة مظلمة لا يوجد بها إلا منفذ واحد وهو التلفزيون . وأبوها من مواليد هذه الجزيرة ، أما أمها فإنها كانت قد وصلت إليها منذ سنوات قلائل بعد أن تركت وراءها جزيرة أخرى تتسم فيها الحياة بغاية الضيق . ولكن المدينة لم تكن أفضل حالاً بكثير ، فالأب يعمل كلما أمكن له في مصنع للقوالب المجوفة ، والأم تضطلع بأي عمل يصادفها ـ في متجر للأثاث أو في مطعم شعبي صغير ـ ولكن المال في يديهما لم يكن كافياً في أي وقت . وكانت المعيشة في المدينة باهظة التكلفة للغاية ، فعليهما أن يدفعا ثم كل شيء ـ الماء والغذاء والكهرباء والإيجار . أما في الجزيرة فقد كان بوسعهما ، من ناحية أخرى ، بناء كوخ ما ، وزراعة القمح والمنيهوت والموز ، وصيد السمك ـ طعام البحر الموعود ـ بصفة خاصة .

وفي عام ١٩٩٦ ، قاموا بالانتقال . وبعد بضعة أشهر ، سألتها أمها عما إذا كانت ترغب في العودة إلى المدينة ، وكان هذا السؤال كافياً لإخافة مارجوري ، وقد ردت بالنفي ، فهي لم تكن ترغب إطلاقا في العودة . وهي تحب معيشتها بالجزيرة . وهي تحب أيضاً أن تعدو هنا وهناك طوال اليوم ، وأن تلعب مع بنات عمومتها ، بل وتسر كذلك عندما يتهكمن عليها لأنها لا تستطيع السباحة مثلهن ، ولقد كن يلعبن دائماً في هذه المياه الصافية الشفافة . وكانت تحب أيضاً أكثر من ذلك أن ينتظرنها ، عند انحسار المد ، كي يعلمنها كيفية السباحة ، حيث كان الضحك يدور بينهن دائماً .

وجزيرة زاراغوزا تبعد عن ساحل سيبو الجنوبية بمسافة كيلومتر واحد من المياه والشعب المرجانية . وتبلغ مساحة الجزيرة ١٧٠ هكتاراً ، وهي تضم أراض صخرية ومساكن خشبية ونباتات ضئيلة ، وإن كانت بها نبتة البوغانفيليا الرائعة كذلك . والأسر التي تعيش بهذه الجزيرة ، والتي يبلغ عددها ٣٠٠ ، قد تمكنت من استغلالها ، حيث كانت تزرع الحدائق وتربي الخنازير والدواجن . ومع هذا ، فقد كان العمل الرئيسي لسكان الجزيرة متمثلاً في صيد الأسماك ، من قبيل السردين والدانغيت والتونة والمكاريل والحبار وأنواع أخرى كثيرة ، مما كان يأتي به الرجال دائماً في صباح وعصر كل يوم ، وكانت النساء تقوم ببيع هذه الأسماك بسوق باديان ، وهي المدينة الواقعة على الجانب الآخر من المياه .

وفي هذه الجزيرة ، حيث لم يكن من المألوف أن يكون لدى المرأة أقل من ست أو سبع أطفال ـ كان لوالدي مارجوري عدد كبير من الأطفال . ولقد بدأت مارجوري التعلم في المدرسة الابتدائية ، وكان من شأنها أن تذهب لصيد السمك في وقت قريب مع أبيها ، مثلها في ذلك مثل جميع الأطفال . وكان أبوها وجدها يقومان بإلقاء الشبكة من قارب ضيق ذي ركيزة في كل من جانبيه يسميه السكان المحليون " بنكا " . وبعد ذلك يضطلع الأب بالغوص في الماء ليخيف الأسماك ويدفعها إلى الشبكة . ومن هذا القارب ، تتولى مارجوري مساعدتهما في جذب الشبكة . وبالنسبة لها كان هذا لهواً ، لا عملاً ، فالصيد من مهن الرجال .

ولكن الأمور كانت في سبيلها إلى التأزم . فأعداد الصيادين كانت في تزايد مستمر ، وكلهم يتنافسون على الصيد . وقد لاحظ كبار السن أن المياه قد أصبحت أكثر دفئاً ، ومن ثم ، فإن الأعشاب البحرية التي اعتاد السمك أن يأكلها كانت تتعرض للجفاف . وهذا يعني أن قلة من الأسماك كان بوسعها أن تجد قوتاً ما في المياه المحيطة بالجزيرة . وكان الأخصائيون يقولون أن ارتفاع درجة حرارة مياه المحيط من أكبر الآثار المفزعة لتغير المناخ . ومع هذا ، وحتى قبل السماع عن الاحترار العالمي ، كان الصيادون بجزيرة زاراغوزا يدركون أن شيئاً ما في

طريقه إلى الحدوث. وأصبحت تلبية الاحتياجات الأساسية من الأمور الأكثر صعوبة كذلك، وثمة أسر كثيرة لم يعد بوسعها أن تأكل ثلاث وجبات في اليوم، ووجدت نفسها مضطرة إلى مطالبة أولادها بمد يد المعونة إليها.

وفي يوم ما، وعندما كنت في الثالثة عشرة من عمري، سألتني أمي عما إذا كنت أستطيع أن اضطلع بالصيد على نحو أكثر جدية، كما لو كان هذا عملاً لي.

> "ولست أحب ما يسمونه بالعمل النسائي. فأنا أحب تلك الطريقة التي يتدرب بها الجنود وبوسعي أن أقوم بذلك أيضاً".

وكيف كان شعورك حينئذ؟

لقد كنت أحس بالسعادة، حيث كنت أشعر بصعوبة الأيام التي كنا نجتازها، وكنت أعلم بأنني أستطيع تقديم يد العون باصطياد مزيد من الأسماك. ولم تظهر المشكلة إلا بعد مرور عام واحد، حيث أخبرتني أمي أن الأمور قد تفاقمت، وأن عليَّ أن أترك المدرسة حتى أقوم بالمزيد من العمل وأوفر تكاليف الدراسة.

ومدرسة مارجوري من المدارس الحكومية، وهي لا تطالب برسوم مدرسية ما في الفلبين، وتكاليف الدراسة تعني بالنسبة لها ثمن الكراسات والأقلام الرصاص وبعض الكتب التي لا تستطيع أن تستعيرها من أولاد أعمامها. ولمدة عامين، كانت مارجوري تذهب للصيد هي وأمها في أحد القوارب، بينما يذهب أبوها وشقيقها الأصغر سناً في قارب صيد آخر. وللحصول على كمية صيد تماثل ما كان يتم في الماضي، أو حتى أقل من ذلك، كان لابد من العمل بمزيد من الجدية.

ومن كان يأتي بقدر أكبر من الصيد، أنت وأمك، أم أبوك وشقيقك؟

أبي وشقيقي لأنهما كانا يذهبان إلى المياه الأكثر عمقاً.

ولماذا لا تذهبين إلى هذه المياه الأكثر الأعمق؟

إن الشبكة تصبح أشد ثقلاً هناك، والأمر أكثر مناسبة للرجال.

وبعد وقت ما، أصبح بوسع مارجوري أن تذهب للصيد وحدها حتى تتمكن أمها من البقاء في المنزل ورعاية أطفالها الستة الآخرين. وأثناء النهار، كانت تخرج لصيد أصداف البحر، في أوقات توفر هذه الأصداف، وسكان الجزيرة يقومون بذلك من أجل استهلاكهم المحلي فقط، ولكن هذه الأصداف قد أصبحت مؤخراً من مصادر الدخل الهامة. ومارجوري تقوم بصيدها بنفس الطريقة التي كان يتبعها أجدادها منذ قرون مضت، والفارق الوحيد يتمثل في أنها تضع على عينيها نظارة مائية صغيرة عندما تعمد إلى الغطس في المياه الساحلية للبحث عن تلك الحيوانات الصغيرة المختبئة في الشعب المرجانية أو المدفونة في الرمال. وثمة حبل أيضاً حول وسطها يربطها بتجويف قاربها. وفي حالة عمل مارجوري باستمرار لمدة خمس ساعات، مع قيامها بالغطس في المياه والخروج منها مراراً وتكراراً، فإنه يمكن لها، في أيام اليسر، أن تحصل على ٥٠ بيسو من بيسوات الفلبين يومياً، مما يناهز دولاراً واحداً.

ألم تشعري أبداً بالخوف داخل المياه؟

يحدث هذا أحياناً. وعندما لا تكون المياه صافية يخالجني شعور باحتمال وجود سمكة من أسماك القرش أو الجريث.

وهل أسماك القرش تتواجد هناك؟

نعم.

وهل تقتل هذه الأسماك الآدميين؟

لقد استمعنا لقصص كثيرة عن ذلك.

ومع وجود مارجوري طوال الوقت في المياه، فإنها لم تكن تنس مع هذا أيام ترددها على المدرسة. وبنات أعمامها قد تخرجن بالفعل، وهي ترى أنها لن تتمكن إطلاقاً من إتمام دراستها، فقد فقدت تلك الفرصة الوحيدة التي كانت متاحة أمامها.

وتقول مارجوري، وهي تذرف دموعاً قليلة تحاول إخفاءها، إنني في الواقع أحب الذهاب للمدرسة، فبمجرد تخرجي كنت سأتمكن من مساعدة والدي في إرسال بقية أخوتي إلى المدرسة. وفي العام الماضي، دارت بين مارجوري وأمها محادثة جادة، حيث وعدت مارجوري بأن أمها إذا تركتها تعود إلى المدرسة، فإنها لن تهمل عملها، بل إنها ستزيد

من عملها قليلاً في الواقع حتى تسدد تكاليف اللوازم المدرسية. ووافقت أمها على ذلك، وقامت مارجوري بإنجاز عام دراسي كامل. وهي على وشك أن تقوم اليوم ببداية العام السابق على السنة النهائية بالمدرسة.

إنه تغمرني مشاعر كبيرة إزاء فكرة إنهاء الدراسة. لقد كان من المفروض أن أتخرج منذ عامين، وإني أخشى الآن من عدم التمكن من الاضطلاع بذلك.

ومارجوري تعمل بكل جدية. وخلال فصل وجود الأسماك الصغيرة، تخرج ليلاً في قارب أكبر حجماً، فهو القارب الوحيد الذي يستطيع أن ينقل الشبكة الكبيرة اللازمة لصيد هذا السمك. وهناك، تعمل مارجوري كأجيرة تأخذ حصة من المال المكتسب، وهي تعمل بالطبع بنفس سرعة الآخرين. ومع هذا، فإن اصطياد هذه الأسماك أصبح متعذراً في السنوات الأخيرة، فلقد تعودت أن تأتي في فصل الصيف، عندما يكون الجو جافاً وحاراً، ولكن المطر يهطل الآن في الصيف أيضاً، وبالتالي فإن الأسماك الصغيرة تهرب إلى البحر المفتوح، مما يعد من الآثار الجانبية لتغير المناخ. وهذا هو ما تقوله إيسيانغ، عمة مارجوري وقائدة الزورق. وهذا ليس بالأثر الجانبي الوحيد الحادث، فسكان الجزيرة كانوا متعودين في الماضي على زراعة القمح في موسم الأمطار، واليوم لم يعد بإمكانهم أن يعرفوا متي سيبدأ فصل المطر، ومن ثم فإنهم يقومون بزراعة القمح عندما تمطر السماء بشكل متواصل لفترة يومين أو ثلاثة أيام. ولكنهم لا يدركون إطلاقاً موعد الأمطار، وفي الكثير من الأحيان يتوقف المطر وتموت النباتات. كما أصبح من المتعذر عليهم أن يحصلوا على ملح من البحر، حيث كان هذا مورداً آخر من مواردهم، فالملح يتعرض للتلف لو سقط المطر أثناء عملية التجفيف. وبالتالي، فإن دخل سكان الجزيرة قد تقلص من جميع النواحي.

وهكذا، وبغية التماس الأسماك أو الأصداف البحرية، يلاحظ أن مارجوري كثيراً ما تخرج وحدها في زورقها. وفي كل صباح، وفي الساعة السابعة، تبحر مارجوري أيضاً نحو مدرستها الثانوية في باديان. وإذا ما كانت تقوم بالصيد طوال الليل، فإنه لا يصبح لديها أي وقت سوى للتريث في منزلها وأخذ احتياجاتها. وفي هذه الأيام، تتولى إعداد كل شيء مقدماً، حتى توفر وقتها. وفي أيام أخرى، تعود لمسكنها في وقت أكثر تبكيراً، في حوالي الساعة الواحدة صباحاً، وتنام قليلاً من الوقت. ومارجوري تحاول أن تنظم نفسها حتى تستفيد تماماً من وقتها، وإن كانت هناك بعض الأمور التي لا تستطيع السيطرة عليها، وذلك مثلما حدث في أحد الأيام منذ شهور قلائل، حيث انقلب زورقها بفعل الرياح التي تحولت في نهاية الأمر إلى إعصار. ولقد شعرت مارجوري بالخوف في الواقع، ولكنها تمكنت بطريقة ما من السباحة والعودة إلى الشاطئ، وبعد ذلك عادت إلى مسكنها وجدفت بقاربها نحو المدرسة مرة أخرى. وثمة رغبة حقيقية لدى مارجوري في التخرج.

إذا لم أتخرج، سيفترض الناس أنني لا أعلم شيئاً، ولن يصبح بوسعي أن أعمل في المدينة.

وهكذا تريدين الذهاب إلى المدينة. لقد رحلت أمك إلى هناك ثم عادت ثانية.

حسناً، إن هذا هو سبب احتياجي للدراسة. وإني أريد أن أذهب إلى المدينة لأنني أريد أن أعمل هناك. ولو كان السمك متوفراً بالجزيرة كما كان من قبل لبقيت، فالناس كانوا في معيشة رغدة هنا. ولكن يتعذر اليوم، وفي إطار تغير المناخ، أن يحصل المرء على قوت يومه.

وما هي نوعية العمل الذي تتصورين القيام به ؟

أريد أن أكون من الجنود.

وتقول مارجوري إنها منذ أن كانت طفلة كانت تحب ذلك الاستقلال الذي يحظى به الأولاد، وأنها تتطلع إلى تحقيق ما لديها من حلم.

ولست أحب ما يسمونه بالعمل النسائي. فأنا أحب تلك الطريقة التي يتدرب بها الجنود وبوسعي أن أقوم بذلك أيضاً.

إن الجنود يتدربون على قتل الأشخاص، ويضطلعون بذلك في بعض الأحيان. ولو كنت جندياً، وتعين عليك أن تقتلي شخصاً ما، فهل ستقومين بذلك ؟

وهنا تضحك مارجوري بتحفظ وحياء. وهي لا تحاول إطلاقاً أن تضايق أي شخص، أو أن تلفت الانتباه لنفسها:

حسناً، يسعدني أن أتولى إطلاق الرصاص قبل أن يعمد الشخص الآخر إلى ذلك.

ألن تشعري بأي أسف ؟

لا لن أشعر بذلك، فإني أدرك أنني إذا لم أضطلع بهذا، فإن زملائي سيتعرضون للقتل على يد هذا الشخص.

وتقول مارجوري أنها لا ترغب الآن في الحصول على " خليل ". فهي لا تريد أن ترى نفسها وهي تحمل عديداً من الأطفال كما يفعل بعض النساء بالجزيرة. وروغيليو رجل قصير القامة ولديه ١٢ طفلاً، وهو يعمل رئيساً للجمعية التعاونية بزاراغوزا، ومن رأيه أن الحصول على عدد كبير من الأطفال من توصيات الأسلاف، ولابد من احترام ذلك. وسوف يغضب هؤلاء الأسلاف في حالة عدم الامتثال لتوصياتهم. وإيسيانغ تعترض على ذلك بقولها إن الأسلاف لا تدري شيئاً عن صعوبة الحياة اليوم، وهذه أفكار تتعلق بأزمان أخرى. ومارجوري تنصت لذلك عن بعد، وتبتسم. وهي تفضل أن تقوم بالدراسة والسباحة والصيد مع أطفال الجزيرة، بدلاً من الخروج مع زملائها بالمدرسة " ممن ينفقون طوال وقتهم في كتابة الرسائل القصيرة والرقص، فهي ليست من هذا النوع ". وثمة استثناء من ذلك عندما يتعلق الأمر بـ " المكعب "، حيث أصبح " مكعب روبك " محل إعجاب جنوني بالفلبين، وبلغ الأمر بالمدرسة الثانوية في باديان أن تنظم مسابقة في هذا الصدد. ومارجوري تحب التحدي، ولكنها لا تمتلك ٥٠٠ بيسو ـ أي ١٠ دولارات ـ لشراء هذا المكعب، وبالتالي فقد تعين عليها أن تقنع ببديل خال من أية علامة تجارية تستطيع أن تتحمل تكلفته. وكان هذا المكعب يابساً إلى حد لا يمكن معه إدارته، وحاولت مارجوري بكل الوسائل أن تجعله أيسر حركة، حيث استعملت الزيت والشامبو دون جدوى. ومن ثم، فإنها قد بدأت في الذهاب إلى المدرسة على نحو مبكر إلى حد ما حتى تستعير مكعبا أصلياً من فتاة ثرية في فصلها سبق لها أن اشترته. وبعد ذلك جاء يوم المسابقة.

لقد كان يوماً لا ينسى بالنسبة لي، فقد فزت. ولم يكن أحد يتوقع لي أن أحقق هذا الفوز، كما أنني لم أكن أنتظره. لقد كسبت ٥ بيسوات، وكنت في غاية السعادة! ولقد ادخرت هذا المبلغ لأشتري شيئاً أحتاجه أو أريده.

وفي هذا المساء فكرت مارجوري في أنها قد تتمكن في يوم ما من الانتهاء من مدرستها، بل وربما كان بوسعها أن تحصل على شهادة بعد ذلك، وأن تحقق حلمها بأن تصبح جندية أو تصبح مدرِّسة كما تريد لها أمها، وأن تذهب إلى المدينة أيضاً. وهي تقول أنها ستفتقد الجزيرة وأسرتها والبحر والفضاء الذي لا نهاية له. وهي تقول كذلك إنها كانت ستظل بالجزيرة لو كانت بها كميات كافية من الأسماك. وتضيف أن الجميع يقولون إن الأمور لن تتحسن، بل ومصيرها الحتمي هو التردي. وتتساءل مارجوري قائلة ماذا يستطيع شخص بسيط مثلي أن يفعل في مواجهة أمر ضخم كهذا ؟

صيد السمك والزراعة المائية
العمل في المياه

إن تغير المناخ يؤثر بالفعل على شبكات الأغذية البحرية والنهرية بكافة أنحاء العالم، بل ويُدخل تعديلات عليها أيضاً. والآثار الطويلة الأجل لتغير المناخ على صيد الأسماك وتربية الأحياء المائية لا تزال خارجة عن نطاق التنبؤ، وإن كان بوسعنا أن ننتظر مشاهدة تغيرات ما في الإنتاجية بنطاق النظم الإيكولوجية. وفي المياه الأكثر دفئاً قد تكون الآثار ذات الصلة متمثلة في تناقص الأسماك، مع تزايدها في المياه الأكثر برودة. وصناعة الصيد نفسها تعد صغيرة، وإن كانت لا تزال هامة، من حيث مساهمتها في تغير المناخ، فمتوسط معدل الوقود إلى انبعاثات ثاني أكسيد الكربون، فيما يتعلق بمصائد الأسماك، قد قدر بحوالي ٣ تيراغرام من الغاز الكربوني لكل مليون طن من الوقود المستخدم[١].

والسكان الأكثر فقراً يعتبرون أقل تمكناً بصفة عامة فيما يتصل بالتكيف مع حالات الهبوط المتوقعة في إنتاجية النظم الإيكولوجية. وفيما يتعلق بمن يقومون بصيد السمك من الرجال والنساء في المناطق التي تتسم بالفقر بصفة خاصة، وهي المناطق التي ستشهد غالبية الآثار السلبية في ميدان الإنتاجية، يراعى أن قلة الأسماك تعني بالتالي مزيداً من الصعوبات. وبناء على الآثار المتوقعة لتغير المناخ، يلاحظ أن صيد السمك سيلزم الاضطلاع به في ظل أحوال جوية أكثر تطرفاً، وعلى مبعد من الساحل، مما يتطلب قدراً أكبر من الموارد البشرية. وستكون هناك حاجة إلى ساعات عمل إضافية وكميات جديدة من الوقود لتجميع الصيد الضروري.

وفي المناطق التي تشكل فيها مصائد الأسماك جزءًا كبيراً من الاقتصاد، سوف يؤثر تغير المناخ على عدد كبير من السكان. وفي منطقة ميكونغ، على سبيل المثال، يقوم ثلثا السكان أو ٦٠ مليون نسمة بالعمل في مصائد الأسماك بشكل أو بآخر، أو بالعمل في قطاعات تتصل بهذه المصائد. وعمل هؤلاء ومعيشتهم بجوار نهر ميكونغ سوف يتعرضان للتغير حيث يتوقع للنهر ذاته أن يتغير من جراء تغير أنماط الأمطار وذوبان الثلوج وارتفاع مستويات سطح البحر. وفي الوقت الذي يتعذر فيه الإتيان بتقديرات دقيقة لما سيحدث، يراعى أن النماذج ذات الصلة تقول بأن ارتفاع سطح البحر بمقدار ٢٠ سنتيمتراً سيفضي إلى تغييرات كبيرة في الأنواع الأحيائية التي تعيش في أدنى دلتا ميكونغ[٢].

وفي الوقت الذي قد لا تفضي فيه التغييرات في الأنواع الأحيائية بالضرورة إلى تقليل كميات الصيد المتاحة، فإن حدوث فقدان ما في التنوع البيولوجي قد تكون له آثار صحية بالنسبة للإنسان. والبحوث ذات الصلة تشير إلى أن الأمراض المدارية التي تهدد صحة الإنسان يجري تخفيفها بفضل تعدد الأنواع الأحيائية التي توجد في البلدان المدارية. وانخفاض التنوع البيولوجي يعني بالتالي احتمال زيادة انتشار الأمراض المدارية. وهناك كثيرون يقولون إن مثل هذه الأمراض مسؤولة عن الجزء الأكبر من التحديات الاقتصادية التي تواجه البلدان المدارية[٣]. ومن هذه الأمراض، الإصابة بالدودة الصنارية، التي تعد مرضاً مدارياً لا يلقى العناية اللازمة، وهي تسبب فقر الدم لدى الأطفال والأمهات، وقد تفضي إلى إحداث إعاقات ما[٤].

وكما يتضح من قصة مارجوري، يلاحظ أن صغار البنات في البلدان النامية يشاركن غالباً في الأعمال الزراعية أو يقمن بالعمل من أجل مساندة الأسرة، من قبيل جمع مواد الوقود ونقل المياه، بدلاً من التردد على المدرسة. وبالنسبة للأسر التي تعمل في القطاع الزراعي غير الرسمي، كثيراً ما يكون أخذ الأطفال من المدرسة إلى المزرعة أمراً ضرورياً. ومع هذا، فإن ثمة أهمية لمراعاة أن مساهمة الأطفال في إنتاجية الأسرة بالبلدان النامية لا تتسم بالأهمية في معظم الحالات، وذلك في إطار الجهود المبذولة من أجل إخراج الأسرة من دائرة الفقر، فالأطفال تعوزهم التدريبات والتجارب الضرورية. وبالإضافة إلى ذلك، يتصف الأطفال بالضعف كعاملين في مجال الزراعة. والقطاع الزراعي يعد من بين أخطر ثلاثة قطاعات يمكن العمل فيها، وهذا من حيث ما يتصل بالعمل من حالات للوفاة وحوادث وأمراض مهنية واعتلالات صحية[٥]. وفي جنوب شرقي آسيا، تقوم أسر فقيرة كثيرة، إلى حد كبير، بالاعتماد على الصيد الزراعي على نطاق صغير كوسيلة للرزق، ومع بداية ظهور آثار تغير المناخ، تشاهد هذه الأسر تهديدات جديدة لما يكتنفها من أوضاع هشة بالفعل.

وحيث إن النساء والشباب يشكلون حصة كبيرة من السكان القائمين بالصيد، يراعى أن هناك أهمية بالغة بالتالي، في مواجهة تغير المناخ، للقيام بكفالة بقاء عمليات الصيد على نطاق صغير، من خلال تعزيز قدرات النساء والشباب في ميدان نهوضهم بأعمالهم. وفي نفس الوقت، لابد من الاضطلاع بالمبادرات اللازمة لتمكين الأطفال والشباب بالأسر التي تعمل في حقل الصيد، وخاصة الفتيات المراهقات بهذه الأسر، من الالتحاق بالتعليم. والمراهقات المحرومات من التعليم أو الحاصلات على تعليم ابتدائي فقط يواجهن مزيداً من احتمالات التعرض للحمل غير المرغوب فيه و/أو الحمل غير المأمون، فضلاً عن عدم استدامة سبل معيشتهن وافتقارهن إلى تلك الفرص المتعلقة بتمكين المرأة[٦].

مريم

شابة من النيجر وعضو في مصرف الحبوب ، تحظى بالاحترام ، وتقوم بتأمين الغذاء

مريم متزوجة ، ولها ثلاثة أطفال ، وعشرات من الأقرباء ، وكوخ من اللبن مسقوف بالقش ، وبضعة دجاجات ، وخمسة أثواب ، وبعض من الوشاحات الملونة ، وهاون ، ومعزقة ، ودستة من الأطباق والفناجين ، وبعض الملاعق ، وأربعة قدور ، وشيء من الحاويات ، وأربع لمبات للإضاءة ، وثلاثة أساور ، وعقد في غاية الجمال . ومريم تعرف أنها قد ولدت في عام ١٩٨٣ ، ولكنها لا تعرف تاريخ ميلادها بالضبط ، ولم يدر بخلدها على الإطلاق أنه يجب عليها أن تلم بهذا التاريخ .

والنيجر من أفقر الدول في العالم ، وهو بلد في غاية الاتساع وتنتشر به الصحاري ، ومعدل المواليد لدى سكانه البالغ عددهم ١٥ مليون ، والذين يعملون في الزراعة بنسبة ٨٣ في المائة ، يعد من بين أعلى المعدلات في العالم: وهو يصل إلى ٧,٧ من الأطفال لكل امرأة . ولقد ولدت مريم في دوكيمانا ، وهي مدينة ليست بها كهرباء أو مياه جارية ، وتقع على بعد ٦٠ كيلومتراً تقريبا من نيامي العاصمة ــ وفي هذه المدينة يعمل أبوها في قطعة أرض تبلغ مساحتها هكتارين أو ثلاثة هكتارات . ومريم هي الخامسة من بين سبعة من الإخوة والأخوات ، ومن ثم فإنها كانت تجد دائماً من تلعب معه حول مسكنها وبالقرب من النهر . وعندما بلغت السادسة من عمرها ، بدأت في مد يد المساعدة بالمنزل: حيث كانت تعين أمها في الطهي والتنظيف وجلب المياه من البئر وإحضار الأخشاب من الدغل . وكانت تساعد أمها أيضاً فيما يتصل بمحاصيلها ، فكثيراً ما تقوم النساء بأنفسهن بزراعة " الغومبو " وهو من البهارات المحلية المعروفة .

ووالدا مريم لم يرسلاها إطلاقاً إلى المدرسة . وإخوتها قد ذهبوا إليها ، ولكنها لم تقم بذلك ، وهي نادمة الآن على هذا: ومن رأيها أنها لو كانت قد التحقت بالمدرسة لكانت قد حصلت على مزيد من الفرص ، شأنها شأن بعض جاراتها ، اللائي أصبحن مدرسات يتقاضين مرتباً ولا يمضين حياتهن في طحن الدخن . ومع هذا ، فإنها عندما بلغت العاشرة ، بدأت أمها وجدتها في تحفيظها للقرآن: تعلمت مريم كيفية التعرف على تلك الحروف المكتوبة ، وكان بوسعها بعد مرور بعض من الوقت أن تتذكر وتنطق تلك الأصوات التي تكون جملاً باللغة العربية في حالة اجتماعها مع بعضها ، وهي لغة لا تفهمها مريم بالطبع . وكان الأمر بالنسبة لها يماثل أداء أغنية بعينها تعبر عن كلمات الله كما قيل لها . وفي وقت لاحق ، وبكل ليلة بمدرسة تحفيظ القرآن بالمدينة ، وعلى ضوء مصابيح النفط ، كان المرابط ــ وهو المرشد الديني ــ يشرح لها معاني ما تردده من كلمات .

وما الذي كنت تحبينه أكثر من غيره عندما كنت في سن المراهقة ؟

إن ما أحببته إلى أقصى حد هو أن أملأ معدتي وأرتدي ملابسي وأتلو القرآن.

ومنذ عشر سنوات ، عندما كانت مريم في السادسة عشرة من عمرها ، قدم إلى مدينة دوكيمانا رجل من دلوي التي تقع على بعد ثلاثين كيلومتراً ، وكان اسمه أبو بكر . وكان يبلغ من العمر خمسة وعشرون عاماً ، وكان له بعض من الأقرباء هناك ، ولقد اتضح فيما بعد أنه كان يبحث عن زوجة له . وفي يوم ما ، خطا هذا الرجل نحو مريم وصوب نظره مباشرة إلى عينيها وقال لها إنه يحبها . وبعد ذلك ، عاد إلى مدينته كي يخبر أبويه أنه قد وجد من يتزوجها .

ونحن هنا لا نقضي وقت طويلاً في التحادث واللقاءات وما شابه ذلك. وإذا كان الولد يرغب في الزواج من إحدى البنات ، مع موافقة البنت عليه ، فإنهما يتزوجان بمجرد تمكنهما من الإعداد للزفاف.

ودلوي مدينة شديدة الفقر ، وهي تتكون من مائة من الأبنية المشيدة من الطوب اللبن والمبعثرة فوق أرض جافة . وكانت مريم تشعر بالخوف ،

فهي لم تعد تخضع لسلطة أبيها ، بل لسلطة زوجها ، وهي ستقضي بقية عمرها مع رجل لا تكاد تعرفه في مكان لم تتعود عليه .

ألم تكوني سعيدة من التمكن من الزواج ؟

كلا ، حسناً ، نعم ... إني أعلم أنه بوسعي أن أثق في زوجي ، فهو لم يكن غريباً عن أسرتي. ولكن الرجل أقوى دائماً من المرأة ، ولا أحد يدري إطلاقاً ماذا سيحدث.

" إنني أنظر أيضاً لنفسي بطريقة جديدة. حيث أعرف تماماً أنني أساهم في الأسرة المعيشية ".

لقد أصبحت مريم زوجة: فهي تنظف المسكن وتطحن الحبوب وتقوم بالغسل والطهي ، كما أنها تذهب إلى الحقول لتقدم لزوجها عجينة الدخن كطعام للغذاء . وبعد عام واحد ، كان لديها أول طفلة لها ، ولقد ولدت هذه الطفلة داخل المسكن تحت رعاية قابلة المدينة . وهي تعيش معيشة طبيعية حافلة بالعمل الشاق ؛ ولولا وجود تهديد دائم بالجوع لكانت هذه المعيشة متسمة بالهدوء .

وأسرة مريم ـ وغالبية المزارعين بالنيجر ـ تأكل ثلاث مرات في اليوم إن استطاعت: عند الفجر تتكون الوجبة من كرة من الدخن سبق طحنها لمدة عدة ساعات في هاون خشبي وهي ممزوجة بقليل من اللبن والماء ؛ وفي منتصف اليوم تتكرر نفس الوجبة أو يقدم حساء يتألف من الماء الساخن ودقيق الدخن . أما العشاء فيجيء مع هبوط الليل وهو أكثر الوجبات إتقانا: يتكون من عجينة الدخن أو القمح مع مرق مصنوع من أوراق التبلدي أو الغومبو أو أي شيء آخر . وبمعدل مرتين أو ثلاث مرات كل شهر ، يؤكل أيضاً السمك أو شيء من الدجاج . وفي أيام العطلات أو المناسبات الخاصة ، تقوم مريم بإعداد الأرز الأبيض مع مرق من الحماض والقرع والطماطم وعجينة الفول السوداني .

ولكن قد يحدث في بعض الأحيان ألا يكون لدينا طعام كاف ، ولا نأكل سوى مرتين أو حتى مرة واحدة في اليوم. وقد يحدث ألا نجد شيئاً نأكله على الإطلاق.

وأشق الأيام هي تلك الفترة المسماة " فترة الجدب " . ففي شهر حزيران/يونيه ، وعند بداية الأمطار ، يقوم الفلاحون بزراعة الدخن والقمح ، مع توقع حصادهما في تشرين الأول/أكتوبر ، وفي هذه الشهور ولدى نفاد المحصول السابق وعدم بداية المحصول الجديد ـ وخاصة في شهري آب/أغسطس وأيلول/سبتمبر ـ تحل فترة الجوع . ومريم تألف دائماً المشقات ، ولكن الأحوال تزداد سوءًا عاماً بعد عام .

ففي الماضي ، كان الحقل العادي ، الذي يتكون من ثلاثة أو أربعة هكتارات ، ينتج ما يصل إلى ٣٠٠ من أكوام الدخن. وإذا أنتج هذا الحقل الآن ١٥٠ كوماً ، فإن هذا يعتبر كثيراً. وفي الأيام السابقة ، كان كل كوم يأتي بسبع أو ثماني وحدات من تلك الوحدات المسماة " تيا " ، وهو لا يأتي اليوم إطلاقاً بأكثر من ثلاثة.

و" تيا " هي أكثر المكاييل شيوعاً في النيجر ، وتتكون من وعاء يتسع لكيلوغرامين ونصف من الحبوب . ومريم تقول إن الحبوب لا تنضج لأن الأراضي مستهلكة ، والأسمدة باهظة الثمن ولا توجد عربات لنقلها إلى الداخل . ولم تعد هناك سوى أشجار قليلة ، حيث تم قطعها لاستخدامها كحطب للوقود أو في بناء المساكن وصنع الأوعية ـ " وإذا لم تكن هناك أخشاب ، فإنك لا تستطيع أن تقوم بشيء هنا " ـ ومادامت لا تتوفر نباتات ما ، فإن المياه تصبح قليلة . ولكن آفة الآفات هي أن المطر لم يعد كما كان من قبل ، وهو يقل يوماً بعد يوم ، كما تقول مريم . ودون إلمام مريم بتعبير تغير المناخ ، يلاحظ أنها تتحدث عنه .

وفي عام ١٩٩٩ ، ولدى وصول مريم إلى دلوي ، تبين لها أن بعض النساء قد بدأن في تشكيل مجموعة للدعم . وفي مدينة مريم ، لم يكن هناك شيء من هذا القبيل ، وهي لم تطلب إليهن أن يسمحن لها بالانضمام إلى هذه المجموعة ، فهي خجولة ولم تحضر لمدينة دلوي إلا مؤخراً . ولكنها تابعت نشاطهن . وقد تشكلت أول مجموعة نسائية من دلوي في عام ١٩٩٧ في أعقاب مبادرة من منظمة " كير " الدولية . وقد كانت تتألف من أربعين امرأة يقمن بالاجتماع مع بعضهن ، ويتحدثن عن مشاكلهن ، ولقد حاولن تقديم مساهمة تبلغ ١٠٠ فرنك ـ أي حوالي ٢٠ سنتاً تقريباً من سنتات الولايات المتحدة ـ كل أسبوع لتكوين صندوق من شأنه أن يزودهن بقروض

تتراوح بين ٥٠٠ ٠٠٠ و ١٠ ٠٠٠ فرنك لمساعدتهن في الشروع في عمل تجاري صغير، من قبيل بيع الفطائر أو الكسكسي أو اللبن. وقد ساعدت هذه المجموعة عضواتها في تصريف أمورهن، ولكن مريم علمت في نهاية المطاف بوجود مصارف للحبوب، وحدتها الرغبة في القيام بذلك.

ومصارف الحبوب تعد من الطرق الأكثر فعالية فيما يتصل بمكافحة تهديدات الجوع التي تعقب حالات الجفاف في النيجر. وثمة ٢٠٠٠ من مصارف الحبوب في البلد بالفعل. وآلية عمل هذه المصارف تتسم بالبساطة، حيث تقوم مجموعة من النساء الناشطات في قراها بالالتزام ببناء مستودع للغلال، ثم تتلقى من برنامج الأغذية العالمي ـ عن طريق شتى المنظمات غير الحكومية ـ رأسمال أصلي في صورة كمية من الحبوب تتألف عادة من ١٠٠ كيس يحتوي كل منها على ١٠٠ كيلوغرام من الدخن والقمح والأرز.

والمصرف يقوم ببيع و/أو إقراض عبوات صغيرة من الحبوب للمجتمع المحلي في موعدين رئيسيين من السنة: أي في شهر حزيران/يونيه عندما تشير أولى الأمطار إلى أن الوقت قد حان للاضطلاع بالزرع، وكذلك عندما تحل "فترة الجدب". والنساء، اللائي ينقسمن إلى لجان، يقمن بإدارة المصرف، ولكن القرارات الرئيسية تتخذ في جمعية عامة. وبغية كفالة الاستدامة، يعمد المصرف كل عام إلى "تجديد رأسماله" حيث يشتري مزيداً من الحبوب للعام التالي. ومن خلال هذا المصرف، تستطيع النساء الحصول على الحبوب في المدن التي يقمن فيها، بدلاً من الاضطرار إلى السير على الأقدام عشرات الكيلومترات بهدف الوصول إلى أقرب سوق. والمصرف يضطلع بتنظيم الأسعار أيضاً، فأسعاره دون أسعار السوق. ومع هذا، ومن ناحية أساسية، يشكل المصرف أداة للتقليل من شأن تهديدات الجوع، وهو يزود النساء بمكانة محترمة في مجتمعاتهن وأسرهن.

وزوجي ينظر إلي الآن على نحو مخالف. وهو يدرك أننا قد لا نستطيع أحياناً أن نجد ما نأكله بدون المصرف، ونحن النساء نشكل هذا المصرف. كما إنني أنظر أيضاً لنفسي بطريقة جديدة، حيث أعرف تماماً أنني أساهم في الأسرة المعيشية.

وفي عام ٢٠٠٢، قامت النساء من مدينة دلوي بتجميع كافة مواردهن لبناء المستودع. وهن يردن بفخر أنهن قد اضطلعن بذلك بأنفسهن.

ويقول أحد ممثلي رئيس القرية "لا، إن الرجال قد قدموا يد المساعدة أيضاً".

نعم، إنكم اضطلعتم ببعض العمل، ولكننا نحن النساء قد وفرنا المال اللازم.

وفي وسط الضحك، تدور المناقشات في الجمعية النسائية بدلوي. ولقد تجمعت النساء هذا الصباح في "هيرارا" ـ أي في مكان إلقاء الكلمات بلغة جيرما الوطنية ـ وذلك تحت شجرة المانجو من أجل مناقشة الأرقام المتصلة بالعام الماضي. وتقوم الرئيسة بعرض الدفاتر عليهن، فلديهن ٨٢١ ٩٣٠ فرنكاً من الأموال النقدية و١٥٣ من الأكياس التي تحتوي كل منها على مائة كيلوغرام من الحبوب. ومريم تجلس بين هؤلاء النساء. وقد انضمت إلى المجموعة منذ سبع سنوات، عندما كان يجري بناء المستودع، وهي تشارك اليوم في جميع الأنشطة: المناقشات والمداولات وفصول التدريب ودورات محو الأمية. وعند حلول فترة الجدب مرة أخرى، كثيراً ما تقوم مريم بشراء الحبوب: ومنذ سنوات قلائل، قررت النساء من مدينة دلوي عدم تقديم

أية قروض جديدة ، فاسترداد هذه القروض غالباً ما يستغرق وقتاً طويلا ، وقد أفضى هذا إلى بعض المشاكل .

وفي عام ٢٠٠٥ ، دخلت الكهرباء مدينة دلوي . وفيما مضى ، كان الليل يبدو معتماً وصامتاً ، ولا يضطر السكان اليوم إلى الإيواء إلى فراشهم عند حلول الليل . والطاحونة تعمل على نحو أفضل ، وبعض السكان يمتلكون ثلاجة ، وهم يقومون بتبريد المياه وبيعها . ومريم لا تستخدم الكهرباء إلا في إضاءة مسكنها باستعمال عدد قليل من مصابيح الإضاءة: وهذا هو كل ما لديها من أدوات كهربائية .

وفي ذلك العام ، رزقت مريم بأول ابن لها ، وقد أحست براحة كبيرة . فالولد يمكن أن يساعد أباه في الحقول ، وعند قيامه بالزواج ، لا يترك مسكنه ، بل يحضر زوجته إلى هذا المسكن ، وتستطيع أم الولد في نهاية الأمر أن تستريح ، فزوجة ابنها تنهض بأعمال المنزل . والابن رمز للعمل ، وهو يبشر بحلول التقاعد . ومريم تدرك أن النساء اللائي لا يستطعن الإتيان بذرية من الذكور قد يصبحن عرضة لاحتقار أزواجهن . وقد يقوم هؤلاء الأزواج في الواقع باتخاذ زوجات أخريات ، في حالة تمكنهم من ذلك ، فهم لا يعتقدون أبداً أن عدم حصولهم على أبناء من الذكور قد يكونون هم سببه .

ومعيشة مريم لا تختلف كثيراً من يوم لآخر . فهي تستيقظ مع شروق الشمس كل صباح ، وتذهب إلى البئر لجلب المياه ، وتعد طعام الإفطار ، وترسل أطفالها إلى المدرسة ، وتنظف المسكن ، وتطحن الدخن ، وتتحدث إلى أقربائها ، وتطهو دخن الظهيرة ، وتذهب به إلى زوجها ، وتعتني بتلك الرقعة الصغيرة المزروعة بالـ" غومبو " ، وتغسل الثياب ، وتهتم بالأطفال ، وتعد العشاء ، ثم تذهب إلى فراشها . وهي تقوم أحياناً ببيع الكسكسي خارج المدرسة .

هل يوجد أي يوم لا تعملين فيه ؟

لا ، لماذا ؟

إنه مجرد سؤال .

لا ، إلا عندما أكون مريضة. ولكن إذا لم أكن أعاني من أي مرض ، فإني أعمل كل يوم دون انقطاع.

وهل لا ترغبين في التوقف عن العمل لفترة يوم واحد ؟

نعم ، إني أحب ذلك. ولكنني أعلم أن هذا لن يحدث على الإطلاق. حسناً ، ربما يجري ذلك عندما يكبر أطفالي ، ولكن ليس قبل هذا اليوم.

ومن رأي مريم أن أطفالها لو تعلموا كيفية القراءة والكتابة ، بل والتحدث قليلاً باللغة الفرنسية ، فإنهم سيستطيعون الحصول على مهنة ما عندما يكبرون ، وربما كان بوسعهم أن يقوموا بإعالتها كذلك .

ألم يسبق لك الذهاب إلى نيامي على الإطلاق ؟

نعم ، لقد ذهبت إلى هناك لأرى بعض أقاربي. وإني أحبها كثيراً. والطعام هناك شهي ، والسكان تبدو عليهم سمات حسن التغذية. وهم يتمتعون بالجاذبية والنظافة وجلودهم تتسم بالصفاء أما ملابسهم فهي بديعة. والفقراء في المدينة أسعد حظاً من الأغنياء هنا.

ألا ترغبين في العيش هناك ؟

نعم ، بالطبع.

لماذا لا تحاولين ذلك ؟

نحن لا نمتلك مالاً يكفي للمعيشة هناك. فهناك لابد لك أن تكون حائزاً لقدر كبير من المال ، فأنت سوف تدفع ثمن كل شيء من قبيل الأخشاب والمياه والغذاء ، فالكل معروض للبيع.

وإذا ما أتاك في يوم من الأيام أحد السحرة ، وقال لك إنك تستطيعين أن تكوني من تشائين وأن تعملي ما يروق لك ، فماذا تختارين إذن ؟

إن ما أطمع فيه هو أن أحصل على مال يكفي لشراء بعض الأبقار ثم أقوم بتسمينها ، وأن أزرع التوابل وأبيعها في السوق ، وأن أحصل على ثلاجة لتبريد المياه وبيعها ، وأن أبدأ عملاً تجارياً حقيقياً. هذا هو ما كنت سوف أختاره. إنني أريد أن أشعر أنني لن أتعرض للجوع مرة أخرى.

الجفاف والتصحر
الزراعة في أرض أكثر دفئاً

في القرن القادم ، قد تعاني مناطق العالم ، التي تتعرض دائماً لحالات الجفاف وموجات الحرارة ، من مزيد من أحوال الطقس المتطرفة ، من جراء تغير المناخ . وعلاوة على هذا ، فإن التقديرات تشير إلى أن الضعف إزاء حالات الجفاف بكل من البلدان النامية والبلدان المتقدمة النمو سيكون أشد وطأة عما كان معروفاً من قبل ، وذلك بناء على ملاحظة الأحداث الأخيرة[١] .

وكما يتبين من قصة مريم ، فإن مزيداً من النساء ينخرطن في العمل الزراعي في سن مبكرة . ولكن هذه القصة توضح أيضاً أن ثمة طرقاً لتأمين توفر البذور والغذاء ، مع القيام في نفس الوقت بتمكين المرأة ، وخاصة الشابات من النساء . وثمة أهمية لذلك ، فالخبراء يشيرون إلى أن إدارة الأراضي الجافة لن تنجح إلا إذا قام الرجال والنساء ، على نحو كامل ومتساو ، بالمشاركة في العمل[٢] .

وتزايد جفاف الأرض يؤثر على السكان في الريف والمدن ، وسيكون تخفيف الآثار ذات الصلة أكثر صعوبة فيما يتصل بالفقراء وبمن يعيشون في أراض جافة . والزراعة سوف تعاني ، لا من مجرد هبوط المحاصيل من جراء تمادي التربة في الضعف ونقص المياه وتضرر المزروعات ، بل أيضاً بسبب تلك التهديدات المتصلة بارتفاع معدل الوفيات في المواشي وازدياد تواتر حرائق الغابات . أما المدن فسوف تعاني من نقص الوصول إلى المياه وتلوث هذه المياه ، مما سيفضي إلى مشاكل تتعلق بالمرافق الصحية ، فضلاً عن الافتقار للمياه اللازمة في مجال الصناعة والبناء . ومن يعيشون في المدن قد ينتظرون حدوث حالات الجفاف وموجات الحرارة بمدى أوسع نطاقاً ، فالمدن أكثر دفئاً من المناطق الريفية المجاورة لها . وسوف تتزايد احتمالات انتشار الأمراض التي تنتقل عن طريق الأغذية والمياه[٣] .

والأضرار المترتبة على حالات الجفاف وموجات الحرارة ، الأكثر تواتراً والأشد قوة ، ستكون على الصعيدين الاقتصادي والبشري . وعلى الرغم من أن حالات الجفاف الراهنة لا صلة لها بتغير المناخ ، فإن تحليل آثارها يشير إلى ضرورة القيام بتخفيف هذه الآثار . وفي غرب أفريقيا ، يلاحظ أن حالات الجفاف الطويلة الأجل قد اضطرت بعض السكان الرحل إلى الاستقرار دون تنقل ، أي أن هذه الحالات قد غيرت بشكل جذري من أساليب للمعيشة مابرحت قائمة منذ قرون من الزمان ، وأكرهت السكان على تعلم طرق جديدة للزراعة ورعاية الماشية . وفي الوقت الذي قد لا توجد فيه بدائل لتغير المناخ ، يصبح من الأهمية بمكان أن يُضطلع بمبادرات ترمي إلى تعزيز قدرات السكان الرحل السابقين ، مع مراعاة هذه المبادرات لماهية ما قد يعنيه التغير من الناحية الثقافية .

وقد تفضي حالات الجفاف والموجات الحرارية ، الأكثر تكراراً والأشد قوة ، إلى التأثير بشكل واسع النطاق على التنوع البيولوجي والتصحر . ويحدث هذا التصحر ، الذي يتضمن تدهور الأراضي في المناطق القاحلة وشبه القاحلة وفي الجهات الجافة شبه الرطبة (لا اتساع رقعة الصحاري القائمة) عند تضافر بعض العوامل . وأول هذه العوامل ، إزالة الغابات والنباتات من الأرض (لاستخدامها كمواد للوقود ، أو من أجل فتح المجال أمام الزراعة والاضطلاع بأعمال جديدة تتصل بالتعمير والتوسع الحضري) ، مما يعني عدم وجود ما يبقي على التربة الزراعية . وثاني هذه العوامل هو تآكل التربة السطحية من جراء رعي الماشية . أما ثالثها فهو الإفراط في استغلال التربة عن طريق الزراعة[٤] .

وكافة هذه العوامل تتصل بالفقر وعدم القدرة على زراعة الأرض بشكل مستدام . وقرابة ٩٠ في المائة من سكان الأراضي الجافة بالعالم تعيش في البلدان النامية .

والتعرية بواسطة الرياح والمياه تزيد من عملية التصحر ، وهي تترك الأرض مغطاة بمزيج من الرمال والأتربة . وحالات الجفاف وموجات الحرارة توسع من نطاق هذه العملية أيضاً . وفي الوقت الراهن ، تكتنف تلك التهديدات المتعلقة بالتصحر ما يبلغ ٤٠ في المائة من سطح الأرض[٥] .

والتصحر لا يكتفي بالإتيان بتحديات على صعيد نقص الغذاء وهبوب العواصف الرملية وتعطل تدفقات المياه فحسب ، بل إنه يمثل أيضاً مشكلة كبيرة على صعيد الأمن . وهو قد يفضي إلى وقوع الأزمات في المناطق التي تتسم بالمجاعات والاضطرابات السياسية والمدنية والهجرات والحروب[٦] . وهو يتميز أيضاً ببعد من الأبعاد المتصلة بجنس المرء . وبصورة تقليدية ، يلاحظ أن العمل الزراعي في الأراضي الجافة يجنح إلى حد كبير إلى الفصل بين الجنسين ، مع اضطلاع المرأة بمسؤوليات ضخمة تتعلق بجمع وإعداد الغذاء . وهذا يعني أن أوضاع المرأة وسبل رزقها تصبح عرضة للخطر عندما تكتنف حالات الجفاف والتصحر مسألة الوصول إلى الغذاء . ومن ثم ، فإن الوضع الاجتماعي ـ الاقتصادي للمرأة يشكل عنصراً جديراً بالإدراج في تلك الأعمال الرامية إلى التكيف مع آثار الجفاف والتصحر والتخفيف منها[٧] . وعلاوة على ذلك ، لابد للرجال والنساء على السواء أن يشاركوا في المبادرات التي قد تغير من ديناميات القوى ، وذلك إذا أريد للتغيرات ذات الصلة أن تصبح موضع قبول من المجتمع بأكمله مع بقائها دون زوال . وتجارب مريم تعد مثالاً هاماً في هذا الصدد .

قد يشير مصطلح الجفاف إلى الجفاف المتعلق بالأرصاد الجوية (هبوط مستوى الأمطار إلى ما دون المستوى المتوسط بكثير) أو الجفاف الهيدرولوجي (انخفاض التدفقات النهرية ، وهبوط مستوى المياه في الأنهار والبحيرات وجوف الأرض) ، أو الجفاف الزراعي (ضآلة رطوبة التربة) ، أو الجفاف البيئي (وهو تجمع للظواهر السابقة) . وتأثير الجفاف يتوقف على السلوك البشري ، من قبيل كيفية استخدام الأرض ، وطريقة استغلال الموارد المائية ، وحجم السكان الذين يعيشون بجوار مصدر مائي بعينه[٨] .

لمحة

ميسياس

رئيس بالمجتمع الأمازوني ورائداً في الزراعة المستديمة

بدأت المسألة كلها وكأنها دعابة، وكان الناس الأكبر سناً يقولون "إن هذا الولد يتحدث كثيراً، وينبغي له أن يكون رئيساً للجمهورية، فهو لا يتوقف عن الكلام، وهو يشبه السمكة وهي خارج الماء"، وكانت المسألة بمثابة أضحوكة في يوم ما، ولكن القوم شرعوا في النظر إليه بجدية. وبعد أشهر قليلة، تم انتخاب ميسياس، خامس طفل لماريا وريموندو، وهو في الثانية عشرة من عمره رئيساً لمجتمع سانت أنطونيو بجزيرة أوروبيو التابعة لإقليم بوافيستا دو راموس بولاية أمازوناس في البرازيل.

ومنطقة الأمازون تشكل أكبر احتياطي أخضر على كوكب الأرض: فمساحتها خمسة ملايين ونصف من الكيلومترات المربعة، وهي موزعة بين البرازيل وبوليفيا وبيرو وإكوادور وكولومبيا وفنزويلا وغيانا ـ وتضم الكثير من التنوع البيولوجي العالمي، ومن الممكن لها أن تعيد امتصاص كميات هائلة من ثاني أكسيد الكربون، مما يقلل من آثار غازات الدفيئة. ومنطقة الأمازون تؤثر بشكل كبير على مناخ القارة بأكملها. ومع هذا، فقد حدث أن أفضت عمليات إزالة الغابات المتسارعة من أجل زراعة فول الصويا وتربية الماشية إلى تخريب ما يزيد عن ٥٠٠ ألف كيلومتر مربع من هذه الغابات.

وقد ولد ميسياس في ٥ كانون الأول/ديسمبر ١٩٨٤ ـ "أو ١٩٨٣ مما لا يذكره ميسياس جيداً"ـ وكانت ولادته في كوخ مسقوف بالقش يقع بجوار النهر؛ وكان أبوه يعمل لحساب أحد أصحاب الأراضي المحليين. وفي عالم يغلب عليه المستوطنون القادمون مؤخراً، كان أبوا ميسياس من أهالي الأمازون المنحدرين أيضاً من أصل أمازوني، أي أنهم كانوا من طائفة الكابوكلوس التي لا تملك أرضاً ما. وشب ميسياس وهو يشاهد أقرانه يرحلون بعيداً: فلم يكن هناك مال كاف، مما أكره الأولاد الأكبر سناً على أن يرحلوا واحداً بعد الآخر لاكتساب الرزق. وقد كانوا يعملون كبحارة بالنهر، ويقومون دائماً بإرسال بعض المال لذويهم. وكان ميسياس في وضع الطفل الوحيد، وكان أبوه الأمي يصحبه معه عند عمله بالأرض، وكان ينصحه باستمرار بألا يعتمد على الرؤساء والتجار، وأن يكون حراً، مع التمكن من الإتيان بغذائه بيده. وفي بعض الليالي كانا يذهبان إلى الغابات لاصطياد الغزلان وحيوانات المدرع الكبيرة والباكة والتابير ـ التي كانت لا تزال موجودة بوفرة في ذلك الوقت ـ وكان الأب ينقل إلى ابنه كل ما يعرفه عن النباتات والحيوانات. وكانا يخرجان أحيانا لصيد السمك بالقوس والسهم ـ "تماماً مثل الهنود" ـ أو بالشبكة أو بالحربون. وبمرور الوقت، بدأ ميسياس في التردد على المدرسة، وكان يدرك كل شيء عن النهر والأدغال والمحاصيل.

وجزيرة أوروبيو تعد منطقة منفصلة ومعزولة، ولا يمكن الوصول إليها براً، وثمة زوارق قليلة تقوم بزيارتها. وليست هناك كهرباء، ومسيرة حياة السكان تتحدد وفق ضوء الشمس، ومازال الأمر على هذا النحو. وكان ميسياس يبلغ من العمر ست أو سبع سنوات عندما اصطحبه والداه لأول مرة إلى أحدى المدن كي يراه الطبيب. ولقد اعترته الدهشة: فهو لم يسبق له إطلاقاً أن رأى طريقاً معبداً أو سيارة أو مسكناً من طابقين أو مصابيح بالشارع أو تلك الأسواق الحافلة بالسلع والفواكه والخضروات.

وفي نفس الوقت، شاهد ميسياس هذا الصندوق الغريب، الذي أحضره كبار الأثرياء من جيرانه من أقاصي المناطق: هو التلفزيون. وكان الأهالي المحليون يتجمعون أمام هذه الأعجوبة، وهم مشدوهون من شدة الاستغراب، لمشاهدة مباريات كرة القدم. وكان كل فرد يدفع ٥٠ سنتاً ثمنا للديزل الخاص بمولد الكهرباء، أما من لا يستطيع أن يدفع شيئاً ما فإنه كان بوسعه أن يقوم بالمشاهدة من خلال النافذة، ولكن الكل كانوا يرغبون في إلصاق وجوههم بشاشة التلفزيون.

وكان الأمر مذهلاً. ففي الماضي ، كانت المسألة مجرد مذياع يجري سماعه ليل نهار. وكان بوسعك أن تنصت فقط دون أن ترى أي شيء.

وكانت كرة القدم بمثابة جزء هام من حياة ميسياس ، وفي يومي السبت والأحد من كل أسبوع ، كانت الجماعة المحلية كلها تتجمع حول الملعب لمشاهدة اللعب والاستماع إلى قليل من الموسيقى والتحدث أيضاً واحتساء شيء من البيرة . وقد كان الصبي قد بلغ الثانية عشرة بحلول ذلك الوقت ، وكان ينفق كل وقته وهو يتحدث إلى الآخرين ، وكان يقول لهم إن عليهم أن ينتجوا طعامهم بأيديهم حتى يكفوا عن الاتكال على المدن ، وأن يزرعوا محاصيلهم في مكان يقرب من

> "... وكنت أقول لهم إنه يجب علينا الاهتمام بما لدينا ، فالمسألة لا تعنينا وحدنا ، والعالم كله بحاجة إلى منطقة الأمازون" .

مساكنهم حتى لا يضطروا للسير وقتاً طويلاً . وفي منطقة الأمازون ، كان من المعتاد استخدام أسلوب القطع والحرق الذي ينتج كميات ضخمة من ثاني أكسيد الكربون ـ مما يسهم في الاحترار العالمي وفي إنهاك التربة . وفي سياق هذا الأسلوب ، يمكن استخدام أي رقعة أرض لمدة سنتين ، مع تركها بعد ذلك بوراً لمدة ست أو سبع سنوات ، وهذا يعني أن الفلاح لا يستطيع أن يحصد كفايته . وكانت نسبة ٨٠ في المائة من الأغذية المستهلكة " على الصعيد المحلي " مجلوبة ، في الواقع ، من مناطق أخرى .

وكان جيران ميسياس يصغون إليه: وفي الانتخابات التالية ، هزم ميسياس ابن عمه ـ وذلك في جزيرة يمت فيها كل فرد بصلة القرابة إلى الآخر ـ وتم انتخابه رئيساً للجماعة المحلية .

والرئيس يتولى تنظيم الجماعة وتنسيق علاقاتها مع السلطات. وهو يعتني أيضاً بالممتلكات العامة ، ويتأكد من أن كل فرد يقوم بالمساهمة الواجبة ، كما ينظم الاحتفالات بأعياد القديسين ، ويكفل النظافة اللازمة ، ويتابع أعمال المدرسين ، ويتوسط فيما بين الجيران.

والكثيرون يفضلون أن يتصرفوا على النحو السليم منذ البداية ، بدلاً من التعرض للخجل الذي يصحب تلقي الزجر من صبي مثلي ...

وفي البداية ، كان ميسياس يخشى من عدم التمكن من العمل على النحو الواجب أو من أن يكون موضعاً للتجاهل ، ومع هذا ، فقد تعلم ونجح في عمله تدريجياً . وكانت الأيام متسمة بمشقة العيش: فوالد ميسياس قد فصل من عمله على يد رئيسه دون سبب ، وذلك بعد أن قضى أربعين عاماً وهو يزاول هذا العمل . وقد لجأ ريموندو إلى القضاء ، ولكن الحصول على شيء من المال كان متعسرا في نفس الوقت ، ومضى ميسياس إلى العمل في مزارع أخرى ، واضطلع بالصيد بحثاً عن بعض الطعام ، ولكنه وقع فريسة لليأس .

وعندما بلغ ميسياس الثامنة عشرة من عمره ، حملت خليلته وولدت أول طفل لهما ، ولكنه قد عزف عن الانتقال والعيش معها . وبحلول ذلك الوقت ، حصل أبوه على قطعة الأرض التي مابرحوا يعيشون بها منذ البداية ، وذلك كتعويض له عن إنهاء خدمته ، وأصبح بوسع ميسياس أن يلتحق بالمدرسة الزراعية ـ التقنية بالجزيرة . وفي هذه المدرسة ، التقى ميسياس ببعض الأشخاص القادمين من معهد الزراعة الدائمة بمنطقة الأمازون الذي يوجد مقره في مانواس ، وقد كانوا يرغبون في استهلال مشروع بالريف .

والزراعة الدائمة تعني تلك البراعة التي تتمثل في ذلك المبدأ الواضح الذي ينادي باحترام الطبيعة والتطلع إلى تعلم كيفية إنتاج الغذاء دون تدمير لهذه الطبيعة ، وذلك هو ما يقوله كارلوس ميللر ، الذي قام هو وعلي شريف بتأسيس هذا المعهد .

وهذا يتضمن الإتيان بنظام من أنظمة المحاصيل المستدامة ، تتسم فيه كافة العناصر بالترابط مع بعضها وبإفادة كل عنصر للآخر ، فكل شيء على اتصال قائم: وهذا يعني أن الزراعة الدائمة لا تتعلق بالتربة والأشجار والأمطار والشمس والحيوانات ، بل إنها تتعلق أيضاً بالصلات الموجودة بينها. ونحن نقول دائما إنه ما من عنصر ما يؤدي عملاً واحداً: فجميع العناصر تأتي بأعمال متعددة ، وعليك أن تعرف كيفية الجمع بينها. وتتمثل الفكرة المنشودة في تهيئة معادلة جديدة للثروة بمنطق الأمازون من أجل المحافظة عليها ، شريطة أن تكون هذه الثروة غير متضمنة لأي تدمير .

وقبل إنشاء المعهد ، كان ميللر قد عمل مع بعض المنظمات غير الحكومية المعنية بالشؤون

الإيكولوجية ، حيث كان يقال إن حماية بعض المناطق تقتضي إخلاءها من السكان .

ولم أكن مستريحاً لهذا: حيث كيف يمكن أن يقتضي إنقاذ رقعة من الأرض طرد من يعيشون بها. وعندما علمت بأمر الزراعة الدائمة ، ظننت أنها قد تكون هي الحل المطلوب. وعندما يقوم شخص بالزراعة ، يلاحظ أنه يزيل كل ما يجده أمامه ويقوم بغرس النباتات في ذلك الفراغ الذي هيأه. وغابة الأمازون تمثل النقيض المباشر لذلك ، فهي تشغل أرضاً لا تضم سوى عناصر غذائية ضئيلة ، وهي تحاول البقاء على نحو ذاتي مع تلقيها للغذاء اللازم من المواد المتحللة منها. ونحن ننقل هذا النظام ، ونستخدم أسمدة طبيعية ، ونجمع بين نباتات يمكنها أن تساعد بعضها بعضاً في النمو دون تخريب للبيئة.

وأحس ميسياس باغتباط لا حد له : فقد يكون هذا هو الحل المناسب لأبناء جزيرته . وقد طلب إليه ميللر أن يواصل دراسته حتى يثبت له أنه مهتم فعلاً بالأمر . وعندما تخرج ميسياس في تشرين الأول/ أكتوبر ٢٠٠٤ ، مضى إلى الالتحاق بمعهد مانواس الذي يقوم ، بالاشتراك مع إقليم بوافيستا ، بإعداد مشروع مساكن الأسر الريفية بجزيرة أوروبيو . وكان هذا المشروع يدار من قبل جينيس ، وهي فتاة تنتمي للسكان الأصليين . وفي عام ٢٠٠٦ ، قام علي وكارلوس بدعوة ميسياس إلى الانضمام إليه .

ويدور هذا المشروع الآن حول كابينة كبيرة في وسط هكتار واحد فقط من الأرض الزراعية ، وهو هكتار حافل بالموارد : حيث يضم أكثر من مائة من نوعيات النباتات ذات الإنتاجية ، من قبيل الذرة والمنيهوت وقصب السكر والأرز والبصل والموز والبن والأناناس والأفوكاته والكستناء وفاكهة زهرة الآلام والجوافة ونخيل الأساف وأنواع أخرى كثيرة . وكانت هناك أيضاً دفيئة لغرس مزيد من النباتات ؛ وتعاونيات للدجاج والسمان من أجل إنتاج البيض والأسمدة ؛ علاوة على توفر شبكة لتجميع وترشيح مياه الأمطار ؛ فضلاً عن ألواح الطاقة الشمسية ؛ ومرحاض إنتاج الأسمدة العضوية . وكانت تجري تربية الأسماك في إحدى البرك ، كما ستقام في وقت قريب حظائر للخنازير بهدف تحويل الفضلات المتخلفة إلى غاز الميثان . ومن المفترض لهذا المشروع أن يتميز بالاستدامة الذاتية ، وأن يكون قبل كل شيء بمثابة نموذج يسمح بالاضطلاع بمزيد من التنمية المجتمعية ، وذلك من خلال إقناع الجيران أنهم قادرون على البقاء دون إضاعة مزيد من الطاقة والوقت أو تبديد قدر كبير من الموارد الطبيعية .

والأمر ليس سهلاً من جراء ثقافة الأهالي التي تعني الإحراق والزراعة والصيد. ويقول ميسياس ، وهو يجلس عند مدخل الكوخ الذي عاش به طوال حياته ، إنك عندما تقول لهم إن بوسعهم أن ينتجوا دون حرق شيء ما ودون تدمير للطبيعة ، فإن البعض يقول لك إنك مخبول وجاهل.

ويقول ميسياس أيضاً إن ثمة مشكلة قائمة ، وهي أن المجتمعات المحلية بالمنطقة متعودة إلى أقصى حد على المساعدات الحكومية . ومنذ أشهر قلائل ، على سبيل المثال ، اضطلع المشروع ببناء وتجهيز تعاونية للدواجن في منطقة محلية

مجاورة . وبمجرد الانتهاء من ذلك ، عمد الأهالي إلى بيع هذه الدواجن وطالبوا المشروع بابتياع المزيد منها .

والسكان متواكلون بشكل كبير. وإذا لم تحفزهم على إتيان شيء ما ، فإنهم سيقضون طوال يومهم وهم يحدقون في السماء ، ويضيعون وقتهم على هذا النحو. وأحاول أن أخبرهم بأن عليهم أن يقوموا بالأمور بأنفسهم ومن أجل مصلحتهم ، ولكن هذا مجرد كلام أقوله. ودورنا يبرز هنا على أي حال ، حيث يتعين علينا أن نوضح لهم أنه لا داعي لحرق أو قطع الغابات أو للصيد بالشباك. والبعض منهم يفهم ذلك ويمارسه. وقلة من الناس هي التي تحرق الغابات ، كما أن ثمة عديدين يقومون بالصيد على نحو واع. وقد حظر الصيد في بعض البحيرات. وشرع الأهالي في زراعة الحدائق وأشجار الفاكهة ، علاوة على تربية النحل. ونحن نريد لهذه المنطقة من نهر أوروبيو أن تكون مثالاً للمجتمعات الأخرى ،

حتى يمكنها أن ترى كيف أن معيشتنا تتحسن ، وكيف أن بوسعها أن تطبق وتنشر هذه الممارسات في المناطق التي تعيش فيها.

وميسياس مازال متحمساً ، وإن كان يدرك أن الكثيرين يعارضون النموذج الذي يطالب به: فأصحاب المزارع يريدون أن يحصلوا على مزيد من الأراضي لماشيتهم ؛ والتجار يرون أن الفلاحين لو أنتجوا من أجل غذائهم فإنهم لن يستطيعوا الشراء منهم . وينظر ميسياس إلى الحكومة كي توفر المساعدة اللازمة ، كما أنه يحاول أن يوضح لأبناء جزيرته أنهم إذا لم يحافظوا على الطبيعة فإنهم سيفقدون كل شيء . وهو يقول لهم إن صون الطبيعة يمثل واجباً بالنسبة لهم باعتبارهم ينتمون إلى منطقة الأمازون ، فتدهور الغابات سيؤثر على كل فرد ؟

ونحن ندرك جميعاً الآن أن كثيراً من البلدان الأفـريقية تعاني من حالات الجفاف ومن الجوع أيضاً ، ومن ثم ، فإني أوضح أن هذا إنما يعود إلى أن الأجيال الماضية لم تفكر في أجيال اليوم: إنها قد نسيت أن أولادها وأحفادها وأولاد هؤلاء الأحفاد سوف يشعرون بالحاجة إلى الطبيعة ، وأنها قد استمرت في تدمير الغابات ، وهذا هو السبب في أن الوضع القائم قد وصل إلى ما هو عليه الآن. وإلى جانب ذلك ، يلاحظ أن العالم بحاجة إلى ذلك الهواء النقي الذي نستنشقه اليوم ، وبالتالي ، كنت أقول لهم إنه يجب علينا الاهتمام بما لدينا ، فالمسألة لا تعنينا وحدنا ، والعالم كله بحاجة إلى منطقة الأمازون.

ولكن الإنسان إذا أحس بالجوع ، وكان من رأيه أنه سيحصل على الغذاء اللازم عن طريق حرق الغابات ، فإنه لن يشغل باله عادة بشأن ما إذا كان سكان الصين أو إيطاليا سيستطيعون التنفس.

وفي الماضي كان الناس لا يعيرون هذا التفاتاً في الواقع. ولقد درجوا على أن يرددوا أنه إذا كان لدينا شيء ما ، فإننا لا نفكر فيمن لا يحوزون أي شيء. ومع هذا ، فإن ثمة رؤية أخرى في منطقتنا ، فالسكان يعرفون أن الكثير مما يجري على الصعيد المحلي يتوقف على ما تقدمه البلدان الأخرى من مال. وهكذا ، أقول لهم أنه إذا كان الآخرون يساعدوننا ، فإن علينا أيضاً أن نمد لهم يد المعونة. ومن واجبنا أن نتوقف عن التفكير بشأن أنفسنا دون انقطاع ، وأن نفهم أن حرق الأرض على أيدينا يطلق كميات ضخمة من غاز ثاني أكسيد الكربون في الجو ، مما يعرض هذا الجو للتلوث. وهذا هو السبب في أن المناخ يتعرض للتغير دون توقف ، وإلى أين سنصل إذا ما استمر الوضع على هذه الحال ؟

وميسياس يحصل على قوته مما ينتجه من محاصيل ومما لديه من مناحل يبلغ عددها ٤٧٠ ، فضلاً عن راتبه الذي يتقاضاه من المشروع . وهو لا يزال يلعب كرة القدم في جميع عطلات نهاية الأسبوع ولا يحب المدن:

لا أستطيع أن أتحمل الضوضاء والإجهاد. وإني أشعر هنا بالهدوء ، وأتنفس هواء نقياً. وإذا احتجت إلى الطعام ، فإنني أخرج للصيد. ولا حاجة لي بإغلاق بابي بالقفل ، حيث لا أخشى أن أتعرض للسرقة. ولا أذهب إلى المدينة إلا لتعلم أمور أتولى نقلها إلى هنا من أجل سكان الجزيرة.

وفي نفس الوقت ، رزق ميسياس بابن آخر من نفس المرأة أي " خليلته " . وغالبية النساء في المنطقة يلدن عدداً كبيراً من الأطفال ، فهن لم يستمعن إطلاقاً إلى من يتحدث إليهم عن تنظيم الأسرة:

والأمر يتمثل في حلقة مفرغة. فإطعام عدد كبير من الأطفال بأسلوب القطع والحرق يفضي إلى مزيد من تقلص الغابات ودمار الطبيعة. ومن ثم ، فإن الأرض تتوقف عن إنتاج الغذاء ، وعندما يكبر هؤلاء الأطفال لن يجدوا ما يأكلونه. وتنظيم الأسرة في غاية الأهمية فيما يتصل بالمحافظة على الطبيعة.

ولقد طُلب إلى ميسياس مؤخراً أن يرشح نفسه كعضو في المجلس بالنيابة عن حزب العمل الحاكم ، وهو لا يدري ماذا يفعل . وهو يقول إن سياسته اجتماعية لا حزبية ، وأنه يرغب في إبقائها على هذا النحو ، فالسياسة الحزبية حافلة بالأموال غير النظيفة والصفقات السرية والضغوط وحالات الفساد أيضاً . . . وهو يقول كذلك إن تغيير الأمور بالفعل قد يتطلب الانضمام لحزب من الأحزاب ، وأنه لأول مرة منذ سنوات طويلة لا يدري ما هي خطوته القادمة .

الغابـات
التهديدات تكتنف موطن الشعوب الأصلية

فيما بين عامي ٢٠٠٠ و ٢٠٠٥ ، بلغت الخسائر السنوية العالمية المتصلة بمناطق الغابات أكثر من ٧ ملايين هكتار ، أي ٠,١٨ في المائة من مجموع الأراضي المغطاة بالغابات[١] . وعلى الصعيد العالمي ، يراعى أن إزالة الغابات تؤثر على ما يزيد عن مليون نسمة تعيش غالبيتها في البلدان النامية[٢] .

والغابات المطيرة تقوم بصفة خاصة بإنتاج الأوكسجين وتخزين الكربون ، مما يخفف من تأثير الانبعاثات الكربونية على تغير المناخ[٣] . ومن المؤسف أن هذه الغابات المطيرة مهددة أيضاً بالإزالة . وفي منطقة الأمازون ، يتوقع لإزالة الغابات أن تقلل من الأمطار ، فقرابة النصف من هذه الأمطار ترجع إلى الغابات المطيرة ذاتها ، وذلك من خلال البخر والنتح من الأشجار . وفقدان الأمطار قد يصل إلى ٢٠ في المائة ، مما من شأنه أن يفضي إلى حدوث فترات جفاف في المستقبل ، مع رفع درجة حرارة سطح الأرض ، وتغيير هيكل الغابات[٤] .

وإزالة الغابات تسهم في تغير المناخ ، كما أن تغير المناخ قد يؤدي بدوره إلى التعجيل بإزالة الغابات . وثمة جهود عديدة يجري بذلها في الوقت الراهن لوقف الخسائر الفورية في الغابات من جراء ما يتم من إزالتها ، ومع هذا ، فإن التأثيرات الطويلة الأجل لتغير المناخ على أراضي الغابات تصبح يوماً بعد يوم صعبة التجنب على نحو مطرد . ومع ارتفاع درجات الحرارة في العالم ، يلاحظ أن النظم الإيكولوجية للغابات قد تتعرض للتغير ، فهذا الارتفاع في درجات الحرارة سيحرك المناطق المناخية المناسبة لنباتات المناطق المعتدلة والشمالية . وثمة أدلة تشير إلى أن هجرة النباتات قد سبق لها أو وقعت بمعدل يبلغ ٢٠ – ٢٠٠ من الكيلومترات في القرن الواحد . وفي الوقت الراهن ، يلاحظ أن انتقال المناطق المناخية المناسبة لنباتات المناطق المعتدلة والشمالية نحو الشمال قد يصل إلى ٢٠٠ – ١٢٠٠ من الكيلومترات بحلول عام ٢١٠٠ ، مما يعني أن النباتات قد تظل في وضع يتسم بالتخلف[٥] . ومثل هذه التغيرات قد حدثت بكاملها طوال تاريخ كوكب الأرض ، ولكن الاحترار العالمي يزيد من سرعتها على نحو كبير ، وهذا لا يتيح للتربة والنظم الإيكولوجية أن تتكيف بتلك الطريقة التي سبق لها أن تكيفت بها في الماضي[٦] . وفي الجهات الشرقية من منطقة الأمازون ، يحتمل بشكل غالب أن يؤدي ارتفاع درجات الحرارة ، بحلول منتصف القرن الحادي والعشرين ، إلى تقليص مياه التربة الذي سيفضي بدوره إلى تحويل الغابات الاستوائية تدريجياً إلى حشائش من حشائش السافانا[٧] . وفيما يتصل بالبلدان النامية ، يتسم تخفيف تأثيرات تغير المناخ على المناطق التي أزيلت منها الغابات بالكثير من التحديات ، وذلك من جراء الفقر والقيود المؤسسية . وفي بلدان عديدة ، تجد العناصر الفاعلة العامة والخاصة وغير الحكومية أنها تفتقر إلى الموارد الكافية لمعالجة تغير المناخ ، مما قد يفضي إلى تصاعد متواصل للآثار السلبية تصعب مواجهته إلى حد كبير . ومن النادر أن توجد آليات فعالة يمكنها أن توفر حوافز مالية للإتيان ببدائل لإزالة الغابات .

وإلى جانب التحولات الإيكولوجية ، يراعى أن إزالة الغابات وتغير المناخ يؤثران بأسلوب مباشر أيضاً على الشعوب الأصلية ، التي تقطن الغابات المطيرة بكافة أنحاء العالم . وهذه الشعوب الأصلية تواجه تحديات ، لا من حيث تلك الآثار المتعلقة بأحوال الطقس المتطرفة التي تهدد المحاصيل والأراضي التقليدية فحسب ، بل أيضاً من حيث النفوذ السياسي ، فغابات هذه الشعوب سوف تتعرض لمزيد من التسييس من خلال الجهود المبذولة للحد من إزالة الغابات وتغير المناخ .

وفي الوقت الذي يتزايد فيه الاعتراف بحقوق الشعوب الأصلية ، ولاسيما بفضل إعلان الأمم المتحدة بشأن الشعوب الأصلية ، الذي اعتمد في ٢٠٠٧ ، يلاحظ أن هذه الشعوب الأصلية كثيراً ما تكون عرضة للتجاهل بشكل مستمر في عمليات صنع القرارات المتصلة بغاباتهم التي تعد موطناً لهم[٨] . واستبعاد الشعوب الأصلية يرجع إلى كل من المؤسسات والبرامج الحكومية ، وإلى القطاع الخاص أيضاً ، وهو قد يفضي إلى فقدان المعارف التقليدية الخاصة بالغابات .

والأطفال والشباب يتأثرون بصفة خاصة بإزالة الغابات ، سواء على الصعيد القصير الأجل أم الطويل الأجل . فإزالة الغابات وسائر الاستخدامات غير المستدامة لهذه الغابات تزيد من أعداد الفقراء وأيضاً من أعداد من سيواجهون الفقر في المستقبل . وهذا يؤثر على نحو مباشر على الخيارات المتاحة أمام الشباب ، ومن أمثلة ذلك ، تلك التهديدات التي تكتنف الالتحاق بالمدارس[٩] . ومع تزايد شدة آثار تغير المناخ ، سيصبح من المتعين على شباب الشعوب الأصلية الذي يعيشون في الغابات المطيرة أن يتناولوا الاستجابة لتحديات المستقبل . والقدرة على الاضطلاع بهذا تستوجب تمكين هؤلاء الشباب من المشاركة الكاملة في الأعمال المضطلع بها بالفعل . وبالتالي ، فإن الجهود المبذولة لتقليص تغير المناخ وتأثيره على الغابات المطيرة ينبغي لها أن تتضمن استراتيجيات لزيادة الالتحاق بالتعليم وتحسين سبل معيشة الشباب .

كيلوم

من نبلاء جزر مارشال ولا ينوي مبارحة جزيرته

عندما كان كيلوم في الثامنة من عمره، كان يستمتع بالإنصات إلى القصص التي يرويها له الرجل العجوز في كابينته الواقعة بجوار البحر. وفي ماجورو، يلاحظ أن ثمة مساكن قليلة فقط هي التي تبعد عن البحر، فهي جزيرة مرجانية تتكون من دائرة من مساحات اليابسة الضيقة والمبعثرة حول بحيرة شاطئية. ومن الساحل إلى الساحل الآخر، لا يزيد اتساع ماجورو عادةً عن مائة متر، أما طولها فهو يبلغ ٤٠ كيلومتراً، ولكن مساحة سطحها لا تكاد تصل إلى ١٠ كيلومترات مربعة.

وماجورو عاصمة جمهورية جزر مارشال في ميكرونيزيا، وهي تبعد عن أي قارة بآلاف الكيلومترات. وجمهورية مارشال تتألف من مجموعة من الجزر المرجانية يبلغ عددها ٢٩، وهي تضم أكثر من ١ ٢٠٠ من الجزر والجزيرات التي لا تزيد مساحة أرضها الكلية عن ٢٠٠ كيلومتر مربع. ولا يعيش بجزر مارشال سوى ٧٠ ٠٠٠ نسمة. ومنذ سنوات قليلة، عندما كان كيلوم في السادسة من عمره وفي الصف الدراسي الأول، كان عليه، شأنه في ذلك شأن سائر الأطفال، أن يسير في الشارع الرئيسي ــ أو الشارع الوحيد بالجزيرة ــ مع غيره من الكثيرين، وكانت الأعلام تخفق والموسيقى تعزف، ففي ذلك اليوم، وهو يوم ٢١ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٨٦، أصبحت جزر مارشال جمهورية مستقلة في إطار ارتباط حر مع الولايات المتحدة.

وكان الرجل العجوز يروي له قصصاً عن الجزر وأساطيرها وتقاليدها. وفي عصر أحد الأيام، قال العجوز لكيلوم إنه، أي كيلوم، قد يرث هذه الأرض بكاملها في يوم ما. وأخبره أنه من النبلاء، فأمه تاكبار ملكة، ومن ثم، فإن عليه أن يكون في غاية الإخلاص لأرضه وفي منتهى الاحترام لتقاليدها. أما والد كيلوم، موليك، فهو ابن أحد التجار اليابانيين الذين قدموا إلى هذه الجزر في العشرينات عندما احتلتها اليابان. وبعد هزيمة اليابان في عام ١٩٤٥، قرر جد كيلوم أن يبارح البلد دون عودة. ومع هذا، فإن تقاليد جزر مارشال تقضي بأن السلالات والممتلكات تنتقل من خلال الأم، وقد كانت أم كيلوم ملكة. وكان على الملك أو الرئيس أن يضطلع بالمسؤولية عن كل فرد آخر، وفقاً للأعراف السائدة. ولقد تبين لكيلوم أن أسلاف أمه قد قدموا من جزيرة تسمى ميلي، وأن هذه الجزيرة لازالت من ممتلكات الأسرة. واضطلع هؤلاء الأسلاف بغزو الأراضي الواقعة في ماجورو وفي جزر أخرى أيضاً من هذا الأرخبيل. وقد أحب كيلوم بلده بالفعل، ولكنه شعر منذ ذلك الوقت أنه مرتبط به بمستوى يكاد يكون خارقاً للطبيعة.

> وثمة شعور لدي بأنني في غاية الارتباط بهذه الأرض. والأرض في غاية الأهمية بالنسبة لنا، وهي هبة ثمينة. وأرضنا محدودة على نحو كبير، ومن ثم، فإن علينا في الواقع أن نهتم بأمرها وأن نحارب من أجلها.

وشب كيلوم؛ وكانت الحياة هادئة من حوله. وفي تلك السنوات، كان سكان الجزيرة أقل عدداً، كما كان عدد المساكن دون ما هو عليه اليوم. وقد تعود كيلوم أن يذهب إلى شاطئ يقع مباشرة أمام مسكنه، حيث يوجد اليوم مستودع ورصيف لتحميل السفن. وأثناء الأسبوع، كان كيلوم يذهب إلى المدرسة ويلعب كرة السلة والبيسبول، ويدرس أيضاً. أما في أيام السبت والأحد، فإنه لم يكن يذهب إلى الكنيسة فقط، بل كان يضطلع بالصيد أيضاً في الجزر المجاورة، ويتسكع مع أصدقائه، وأحياناً مع إحدى البنات. ورغم ذلك، كان عليه أن يعود إلى مسكنه بحلول الساعة العاشرة مساء: فسلطة من هم أكبر سناً كانت صارمة إلى حد ما في ذلك الوقت.

ونظراً لعدم وجود الحواسيب وقلة أجهزة التلفزيون، كان العالم الخارجي نائياً بشكل كبير.

ولكن كانت هناك ، من حين لآخر ، هزات عنيفة ، من قبيل تلك الأيام في عام ١٩٩٠ ، حيث بدأت حرب الخليج ، وشعر سكان جزر مارشال بالخوف ، فجزيرة كواجالين ، وهي أكبر جزرهم المرجانية ، تشكل جزءًا رئيسياً من شبكة الصواريخ التابعة للولايات المتحدة ، ولفترة بضعة أسابيع كانت ثمة خشية من وقوع هجوم ما .

وفي وقت لاحق ، نمت إلى مسامع كيلوم بعض الكلمات التي كان من شأنها أن تؤثر في حياته . وقد كان في السنة النهائية من المدرسة الابتدائية عندما أصغى ، لأول مرة ، لمصطلحات تغير المناخ وارتفاع مستوى سطح البحر ، ولكنه

> ” إني أشعر أن هذا المكان جزء مني وأنني جزء منه. ومن المؤسف لي أن أتصور ذلك. ولكنه سوف يحدث: ففي ظل الأحوال الراهنة، لا يوجد أمامنا الكثير مما نستطيع الاضطلاع به “ .

لم ير أن ثمة أهمية لهذه المصطلحات . فهؤلاء الأجانب الذين يقولون إن جزر مارشال ستغرق في البحر لابد وأنهم يمزحون . وبعد بضعة سنوات ، ولدى انتهائه من المدرسة الثانوية ومحاولته أن يبت فيما سوف يقوم بدراسته ، اطلع على هذه المصطلحات مرة أخرى ، وبدت له هامة في ذلك الوقت . وإذا كانت مياه المحيط ترتفع بالفعل ، كما يرى البعض ، فإن بلده سيكون مصيره إلى الاختفاء دون شك . وأحس كيلوم بأن عليه أن يقوم بشيء ما ، وأن يخطو أول خطوة ، ولقد قرر أن يدرس الأحياء البحرية .

> ولقد تبين لي أن مسألة ارتفاع سطح البحر تعد مسألة حياة أو موت بالنسبة لنا ، والجزيرة لو تعرضت للغرق ، فإن هذا يعني ببساطة أننا سنختفي كبلد وشعب وثقافة.

وبعد عام واحد ، وعندما كان كيلوم في العشرين من عمره ، علم أن الحكومة اليابانية تقدم منحاً دراسية . ولقد اهتم بالأمر ، فهذه فرصة طيبة أمامه لتعلم الجديد واستكشاف تلك الثقافة الأخرى التي تجري في دمه . ولقد وقع الاختيار عليه ، وقام بالسفر ودراسة الهندسة المدنية . ولم تكن الحياة سهلةً في طوكيو ، حيث كان عليه أن يتعلم اللغة ، فضلاً عن كيفية المعيشة في مجتمع حافل بالتكنولوجيات وبالعمل المكثف ، وذلك داخل مدينة ضخمة يتحتم عليه فيها أن يمضي ٤٥ دقيقة بقطار مزدحم حتى ينتقل إلى الجامعة كل صباح ، وذلك في بلد يوجد بها ما يسمى ، على سبيل المثال ، البرد . ولكن كانت هناك تعويضات عن ذلك ، فلقد رأى الثلج لأول مرة ، كما تعلم الكثير ، بالإضافة إلى التقائه بجين ، وهي فتاة من ساموا كانت تدرس في اليابان كذلك . ولدى تخرجهما ، ذهب كيلوم وجين إلى ساموا ، حيث تزوجا ، ورزقا بأول طفل لهما . وبعد ولادة هذا الطفل بستة أشهر ، رحلا إلى ماجورو .

ولدى عودة كيلوم إلى الجزر ، يلاحظ أنه قد أدرك ، بعد أن ابتعد عنها فترة طويلة ، تلك التغيرات التي طرأت في العقود الأخيرة على بلده وثقافته ، وكان أوضح مثال على ذلك هو الغذاء . وطيلة سنوات عديدة ، كان سكان جزر مارشال لا يأكلون إلا ما هو في متناول يدهم: الأسماك والصدفيات وثمار الخبز والقلقاس وجوز الهند والبطاطس الحلوة والموز والمنيهوت وقصب السكر والدواجن والخنازير . ومع هذا ، وبفضل اليابانيين ، تعودوا على أكل الأرز والمعجنات ، ومن الأمريكيين عرفوا الخبز ، وقد تعين عليهم اليوم أن يستوردوا هذه الأشياء وأية لوازم أخرى كذلك: من قبيل الأطعمة والمشروبات والملابس والمفكرات ومسامير الأمان والسيارات والمنظفات وأجهزة التلفزيون وماكينات غسيل الأواني والأدوية ، فضلاً عن مواد الوقود بكميات كبيرة من أجل النقل والكهرباء .

ولقد تبين لكيلوم أن العنصر الغالب في تغيير ثقافة جزر مارشال هو مجيء المال: ففي الماضي ، لم يكن هناك مال بهذه الجزر . ولقد اعتاد السكان على تقاسم ما لديهم من قليل ــ أي سمكة أو بعض الخضروات أو العمالة اللازمة لبناء مسكن أو زورق ــ ولكنهم أصبحوا يتسمون بمزيد من الطمع . وقد لاحظ كيلوم أيضاً وجود مشاكل أخرى .

> ولقد تبين لي أن مسألة ارتفاع سطح البحر والجزيرة قد تطورت ، وهذا أمر يبعث على الارتياح ، ولكن هذا التطور لم يحظ بتخطيط سليم ، وبالتالي ، فإننا نواجه الآن مشاكل تتعلق بالنظافة الصحية والبيئة والصحة. والنمو الديمغرافي كان في غاية السرعة ، ولم يكن بوسع الهياكل الأساسية أن تستوعب

هذا النمو. ولكني لا أزال فخوراً بأنني من جزر مارشال. ونحن قوم مبدعون ولقد جئنا إلى هذه الجزيرة منذ وقت طويل وابتكرنا أساليب جديدة للمعيشة. ونحن نعد في طليعة الملاحين في العالم ولقد تمكن مواطنونا من الإبحار مئات من الأميال في زوارقهم ، بدون أي أجهزة على الإطلاق. ونحن ، سكان جزر مارشال ، جزء من هذه الأرض ومن هذا البحر.

وأصبح كيلوم ولعاً بقضيته القديمة ، وهي تغير المناخ وارتفاع مستوى سطح البحر. وانضم إلى منظمة غير حكومية ، حيث اضطلع بالعمل معها ، وهي جمعية المحافظة على جزر مارشال. وهكذا ، بدأ يعالج هذه المسألة على أساس التفرغ:

ويتمثل جزء من عملي في الدعوة لحماية ما لدينا من شعب مرجانية وموارد بحرية. وإذا فقدنا ذلك لكان مصيرنا هو الهلاك المحقق: حيث سنفقد مصدر عائداتنا وإمكانية زيادة السياحة ببلدنا. وأهم ما في الأمر أن الشعب المرجانية إذا كانت في حالة صحية جيدة ، فإنها تنمو على نحو سريع في الواقع ، وقد يكون نموها أسرع من ارتفاع مستوى سطح البحر ، مما يطيل من فترة بقائنا فوق المياه.

هل تعتقد بالفعل أن الجزر قد تتعرض للغرق ؟

حسناً ، إن الخبراء لا يستطيعون حتى الآن أن يحددوا معدل سرعة ارتفاع مستوى سطح البحر ، وبالتالي ، فإن ما يمكننا عمله اليوم بصفة أساسية يتمثل في مساعدة الشعب المرجانية على النمو بصورة أكثر صحة وسرعة لتزويدنا بملجأ يحمينا من الموج ويمزيد من الغذاء أيضاً. ولكن لا أدري ... فالأمر يتمثل في أشياء قليلة لن يكون لها أي تأثير لو ارتفع مستوى سطح البحر على نحو سريع.

ومن الطرق المعتادة لوقف تآكل الأرض ، غرس الأشجار على الساحل ، وهذا أمر بالغ الصعوبة في ماجورو ، فطوال الشاطئ تقريباً توجد مساكن وأسر ، وليس ثمة مكان كاف يتسع للأشجار. وبجوار المطار ، تقوم الحكومة ببناء عدد قليل من الحواجز بهدف صد المياه ، ولكنها تستخدم أحجار الجير التي تستخرجها من الشعب المرجانية باستعمال الديناميت. وفي سياق توهين وإضعاف هيكل هذه الشعب ، يلاحظ أن الجزيرة يتزايد تعرضها للرياح والعواصف والفيضانات. وفي كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٨ ، أدى ارتفاع في مستوى المحيط إلى غمر الجزيرة بالمياه. واضطر الآلاف إلى مبارحة مساكنهم ، وفي يوم عيد الميلاد ، أعلنت الحكومة حالة الطوارئ. واليوم ، وطوال الشاطئ ، توجد شواهد المدافن التي اكتسحتها المياه مبعثرة في الرمال.

وعلى الجزيرة ، لا توجد مواد للبناء ، ومن ثم ، فإنك إذا كنت تريد أن تدعم

أحد أجزاء الجزيرة ، فإن عليك أن تضحي بجزء آخر.

وعلاوة على ذلك ، توجد كتل من الأسمنت تسمى الدكة ، وهي قوية وفعالة ولكنها باهظة الثمن ، والحكومة لا تملك المال الكافي لشرائها . وعلى أي حال ، إن هذه ليست سوى حلول مؤقتة يمكن استعمالها فترة سنوات قليلة .

وإني أعلم أنه سيجيء الوقت الذي ستصبح فيه هذه الجزيرة تحت المياه. ولا أدري ماذا سيحدث لشعبنا ولأسلوبنا في المعيشة. ولن تكون هناك لغة خاصة بجزر مارشال أو ثقافة متصلة بها ، وهذا أمر صعب بالفعل بالنسبة لي ، فإني أشعر بارتباطي بهذا المكان. إني أحبه وأعتبره مكاني الأثير.

ولكن هل تعتقد أن هذا أمر لا مفر منه ؟

نعم ، إنه أمر لا مفر منه. فالغطاءان الجليديان القطبيان يتعرضان لذوبان سريع ، ومستوى سطح البحر يرتفع تبعاً لذلك. وبوسعك أن تؤجل هذه العملية ، ولكننا في نهاية المطاف سنصبح تحت المياه. وقد يحدث ذلك خلال مائة عام أو مائتين ، فلا أحد يدري. ولكن بالنسبة لي ، أفضل أن أموت على هذه الجزيرة ولا أذهب إلى مكان آخر ، إذا ما وقع ذلك أثناء حياتي. وسوف أغرق مع السفينة ، إني أشعر أن هذا المكان جزء مني وأنني جزء منه. ومن المؤسف لي أن أتصور ذلك ، ولكنه سوف يحدث: ففي ظل الأحوال الراهنة ، لا يوجد أمامنا الكثير مما نستطيع الاضطلاع به. ولتتخيل أن بلدك سوف يختفي تحت المياه.

وأعلى نقطة في ماجورو ترتفع عن مستوى سطح البحر بمقدار ثلاثة أمتار . والتهديد أمر ملموس هنا طوال الوقت .

وما رأيك في السكان القاطنين بجزر أخرى من تلك الجزر المهددة ، ممن يبحثون عن مكان آخر ، مثل أهالي توفالو وملديف ؟

حسناً ، لقد بلغ الأمر ببعض السكان من جزر مارشال أن يفضلوا الذهاب إلى الولايات المتحدة. والناس ليسوا كلهم سواء.

وفي جزر مارشال ، يوجد قدر كبير من الفقر والبطالة ، والكثير من الشبان لا يفكرون بطريقة كيلوم ؛ فهم يؤثرون مبارحة هذه الجزر ماداموا قادرين على ذلك ، والارتباط الحر بالولايات المتحدة يعطيهم حق المعيشة في ذلك البلد . وفي الشهور الأخيرة ، كان هناك ، على سبيل المثال ، برنامج يتضمن قيام شركات الفنادق بأمريكا الشمالية بتشغيل ٨٠٠ من شباب ماجورو للعمل في مؤسساتها . وفي إطار عدد من السكان يبلغ ٢٥ ٠٠٠ ، يراعى أن الرحيل المفاجئ لـ ٨٠٠ من الشباب يمثل ضربة قوية .

ولكن بالنسبة لي ، هذا هو المكان الذي سأموت فيه. فجدتي وأمها مدفونتان هنا ، وسوف أدفن هنا بدوري. ولا أتخيل نفسي قادراً على العيش في بلد آخر لفترة طويلة.

ولكن من الصعب أن تفكر في أن كل ما عملت من أجله وكل ما كافحت في سبيله سوف يختفي. وفي بعض الأحيان أتساءل "لماذا أفعل هذا ، ولماذا أقوم بذلك ؟"

وما هي إجابتك ؟

إن من الأفضل أن تضطلع بشيء ما ، حتى في ظل هذه الظروف ، بدلاً من الوقوف مكتوف اليدين. وعلى أي حال ، سأعمل بقدر ما يمكنني لإرجاء غرق وطني. وذلك يعني أنني قد حاولت على الأقل ، وهذا يمثل التزاماً من جانبي.

الجـزر الصغيـرة
ارتفاع مستوى سطح البحر والخيارات القائمة

في الوقت الذي ينتظر فيه لتغير المناخ أن يؤثر على جميع البلدان بشكل ما ، يلاحظ أن الجزر الصغيرة تواجه بعضاً من أكبر التحديات . والسكان الذين يعيشون في المناطق المنخفضة والجزر الأصغر حجماً قد يجدون منازلهم في الواقع غير صالحة للسكنى خلال القرن القادم ، من جراء ارتفاع مستويات سطح البحر والعواصف المدارية وسائر الظواهر التي ترجع إلى تغير المناخ[١] . ولدى مواجهة هذه المخاطر ، يراعى أن الكثير من الدول الجزرية الصغيرة يدخل أيضاً في عداد البلدان النامية التي تتسم بضآلة عدد السكان ، مما يعني أن قدراتها على منع تصورات تغير المناخ المتوقعة أو التخفيف منها أو التكيف معها تكتنفها عقبات كؤود .

وارتفـاع مستويات سطح البحر ، الذي سيفضي جزئياً أو كلياً إلى تغطية الدول الجزرية الصغيرة في المحيط الهادي بالمياه ، قد برز كواحد من آثار تغير المناخ التي تجدر مناقشتها مراراً وتكراراً . وبعض البلدان قد بدأ بالفعل في التخطيط لنقل قطاعات كبيرة من سكانه ، وكما يتضح من قصة كيلوم ، يفضل الكثيرون ممن رحلوا عدم العودة .

والجزر التي ستختفي قبل عام ٢١٠٠ ليست ، مع هذا ، بالشاغل الوحيد بالنسبة لمن يعيشون في الدول الجزرية الصغيرة . والتحديات القائمة بالفعل قد يستفحل أمرها من جراء تغير المناخ ، وقد تفضي هذه التحديات إلى وجود حالات خطرة ، وذلك قبل أن تصبح الجزر الصغيرة غير صالحة للإقامة في ضوء ارتفاع مستويات سطح البحر . وعلاوة على هذا ، فإنه ليس من المتوقع لكافة الجزر الصغيرة أن تصبح مغمورة بالمياه ، ولكنها ستواجه رغم ذلك تحديات أخرى . وهذا يشير إلى ضرورة القيام بوضع حلول طويلة الأجل للمشاكل المحتملة ، إذا ما كانت الدول الجزرية الصغيرة ، التي لا ينتظر اختفاؤها تحت سطح البحار المتزايدة الارتفاع ، ستصير غير صالحة للمعيشة في المستقبل .

ومن القضايا المتسمة بالتحدي ، والتي تتقاسمها الدول الجزرية الصغيرة بالعالم كله ، تلك القضية المتصلة بالإمدادات المائية والوصول إلى المياه العذبة . وعلى نحو عام ، يتسم الوصول للمياه بالصعوبة ، كما أن إدارة الإمدادات المحدودة تشكل جزءًا من الحياة اليومية . والإسقاطات ذات الصلة تفيد أن تغير المناخ سوف يزيد من تعريض الموارد المائية المتاحة للمخاطر . وهذا التهديد منبثق عن ارتفاع مستويات سطح البحر وحدوث تغييرات في معدلات سقوط المطر ، مما قد يلوث أرصدة المياه العذبة بالملح[٢] . وبعض التخفيضات ذات الصلة قد لا تكون قابلة للإزالة .

والتملح قد يشكل تهديداً أيضاً بالنسبة للتربة المستخدمة في زراعة المحاصيل . وفي ميكرونيزيا ، حيث يعيش كيلوم ، يزرع القلقاس ، وهو غذاء أساسي في مناطق المستنقعات المنخفضة ، وهي مناطق معرضة لفيضانات مياه البحر التي تحتوي على أملاح ذائبة . ولدى تلوث التربة بالمياه المالحة ، يلاحظ أن تنظيف التربة بالأمطار العادية يستغرق فترة تصل إلى سنتين ، كما أن نبات القلقاس ذاته يحتاج إلى فترة تتراوح بين سنتين وثلاث سنوات قبل أن يصبح جاهزاً للحصاد[٣] . وفي حالة زيادة اختراق المياه المالحة عن طريق الأمواج ، يراعى أن ارتفاع سطح البحر وهطول الأمطار سيصبحان أكثر تواتراً ، كما أن استعادة التربة لحالتها الطبيعية ستصير أكثر تعذراً . ومثل هذه الخسائر في المحاصيل تشكل طعنة قوية بالنسبة لاقتصادات الدول الجزرية الصغيرة ، والكثير منها يعتمد إلى حد كبير على واردات الأغذية .

وحيث إن جزراً صغيرة عديدة تقع في المناطق المدارية ودون المدارية ، فإن بعض الأمراض من قبيل حمى الضنك والإسهال والملاريا تمثل شاغلاً ملحاً بالنسبة لبعض الدول الجزرية الصغيرة . وفي الوقت الذي لا توجد فيه معلومات أكيدة عما إذا كان تغير المناخ سوف يفضي إلى زيادة حدوث الأمراض أو عن كيفية ذلك أو مكانه ، فإن هذه القضية تعد مبعثاً للقلق في حالة ارتفاع درجات الحرارة وتعوق الوصول للمياه العذبة وتغير مواسم المطر[٤] . وهناك عوامل أخرى من شأنها أن تسهم في نشر الأمراض أيضاً ، من قبيل سوء إدارة الفضلات والافتقار إلى الهياكل الأساسية .

وفيما يتصل بالجزر الصغيرة ، التي تقع في خطوط العرض العليا ، يتوقع لتغير المناخ أن يؤثر على التنوع البيولوجي . وآيسلندا ، وهي بلد يعتمد جزئياً على صناعة الصيد لديها من أجل تحقيق إيرادات تصديرية ، سوف تصبح بحاجة إلى التكيف مع تقلص محتمل لأرصدة أسماك الكبليين ، وهي من أسماك العلف ، التي تتغذى عليها الحيتان والفقمات وسائر الأحياء المائية المفترسة التي تشكل جزءًا من الصيد في المياه المحيطة بهذا البلد[٥] .

والشباب الذين يعيشون في الدول الجزرية الصغيرة يواجهون قرارات صعبة فيما يتصل بتغير المناخ المتوقع . وهل يبقى هؤلاء الشبان في بلدانهم ويقومون بما يستطيعونه كما قرر كيلوم أن يفعل ، أم أنهم سيرحلون للاستقرار في مكان آخر ؟ وعلى أي حال ، قد يؤدي تغير المناخ إلى التأثير على معيشة الشباب الذين يقيمون بالجزر الصغيرة ، فهو سيؤثر بشكل سلبي على سبل رزقهم وكذلك على صحتهم البدنية والنفسية . ومهما كانت القرارات التي سيتخذها الشباب القاطنين بالدول الجزرية الصغيرة ، فيما يتعلق بمعيشتهم في المستقبل ، فإنه يجب علينا أن نكفل عدم تعويق خياراتهم من جراء الافتقار للوصول إلى التعليم أو سبل الرزق أو الخدمات الصحية .

منديسا

أمريكية ومن الأعضاء المنظمين بحركة الحرية المعنية بالاستجابة للكوارث

كان من شأن يوم الإثنين هذا أن يغير من حياة منديسا وأيضاً من حياة كثيرين غيرها. وفي الواقع، يلاحظ أن حياة مدينة نيو أورلينز قد تغيرت بكاملها في يوم الاثنين ٢٩ آب/أغسطس ٢٠٠٥، عندما عصف إعصار كاترينا بالمدينة.

وقد ولدت منديسا في عام ١٩٨٥ ببروكلين، نيويورك، حيث كان أبواها قد انتقلا إلى هناك منذ ١٢ عاماً. وكان الاثنان من جنوب الولايات المتحدة، فأمها كانت من جنوب كارولينا، أما أبوها فكان من نيو أورلينز. وقد رحلا إلى الشمال سعياً إلى مكان أفضل يمكنهما أن يعيشا فيه، مع اتسام هذا المكان بعدم تصعيب الأمور إلى حد كبير بالنسبة لمن كان أمريكياً من أصل إفريقي.

> ومن الناحية التاريخية، يراعى أن الجنوب مابرح يفتقر إلى الموارد والاستثمارات. وفي ذلك الوقت، كانت العنصرية التي انتهت بمقتضى القانون قائمة في تلك المناطق. وكانت نيويورك تعتبر بمثابة المدينة التي يمكن فيها لأحلام المرء أن تصبح حقيقة واقعة.

وكان والد منديسا طبيباً ينحدر من أب يعمل برصيف الميناء وأم تشتغل مصففة للشعر، ولقد حصل الأب على منحة دراسية بكاليفورنيا، وكان يمارس مهنته في ذلك الوقت بإحدى مستشفيات نيويورك. أما والدة منديسا، فإنها كانت منظمة مجتمعية تكافح من أجل إعمال حقوق المرأة. وعندما بلغت منديسا السادسة من عمرها، قرر أبواها العودة إلى نيو أورلينز، التي تشكل موطناً لأهاليهم وجذورهم، وذلك من أجل تربية أطفالهم في نطاق ثقافتهم، وقد كان لمنديسا شقيقان يكبرانها في السن. وفي نيو أورلينز، تتميز كلمة الثقافة بمعنى في غاية العمق، فهذه المدينة كانت إسبانية ثم فرنسية، وذلك قبل أن تصبح مهداً لموسيقى الجاز، التي تعد واحدة من أهم القوالب الثقافية الأمريكية.

وفي نيو أورلينز، بدأت منديسا التردد على المدرسة، وكان عليها أن تتكيف مع بعض المشاكل الجديدة، فقد كانت بدينة ومصابة بالثأثأة مع انتمائها للأمريكيين المنحدرين من أصل إفريقي، ولقد تعرضت للمضايقة من قبل بعض الأطفال لكل هذه الأسباب.

> وإني أذكر أن بعض الأطفال كانوا يقولون لي 'أنت قذرة، أنت قذرة'، وهكذا عدت لمنزلي باكية، وتساءلت أمي عما حدث، وقلت لها 'أريد أن أستحم، إنني قذرة'، وقالت لي 'لا، إنك لست قذرة'، ثم أرتني صور أسرتي، وقالت 'أنظري، إن أباك أسمر، وجدك، وعمك، ونحن جميعاً سمر، وليس ثمة ما يجعلك قذرة على الإطلاق، وهذا هو وضعنا، وكل شيء على ما يرام مائة في المائة'.

وبعد وقت قصير، تعلمت منديسا أن من يرون أنفسهم "عاديين" يميلون إلى احتقار "الآخرين"، وأحست أنه يتعين عليها أن تدعم موقفها. وفي مدرسة منديسا الإعدادية، كانت مجموعة صديقاتها تتألف من سبع أو ثماني زميلات تستند هويتهن إلى كونهن مختلفات. ومع بعضهن، كن يقمن بأي شيء لا يتمشى مع المألوف، فقد كن يلعبن الشطرنج ويقرأن الكتب المتقدمة ويدرسن الفرنسية ويشتركن في مسابقات الألغاز ويرفضن الذهاب إلى المركز التجاري. وقد كن يرغبن في القول للأخريات أنهن مختلفات عنهن.

وكانت منديسا تتردد أيضاً على مدرسة للفنون الإبداعية، حيث شاركت في برنامج للكتابة؛ ولقد كانت مشغولة إلى حد كبير، ولكن هذا لم يمنعها من إنفاق بضعة ساعات كل يوم وهي تجلس أمام جهاز التلفزيون أو تثرثر مع أصدقائها عبر الإنترنت. وعندما بلغت منديسا السادسة عشرة، سمعت عن مكان يسمح بإيواء ضحايا العنف العائلي، وبدأت منديسا في ذلك الصيف بالتطوع في "مركز الهلال"، وهو

مؤسسة يقدم فيها للمئات من النساء اللائي يتعرضن لسوء المعاملة وأطفالهن ما يلزمهن من دعم وإسكان مؤقت وتعليم ومشورة قانونية. ومنديسا لا تستطيع استيعاب فكرة قيام الرجل بضرب شريكته، وقد قررت أن تصبح محامية لشؤون الأسرة، وكان هذا المركز بمثابة نقطة بداية طيبة لها.

وبعد ذلك بعامين، وعندما حان وقت مشاركة منديسا في الاحتفال ببلوغ مرحلة عمرية جديدة، مما يصطبغ بطابع أمريكي إلى حد كبير، فضلاً عن التخرج وزيارات الكليات، ارتأت أن تظل في نيو أورلينز حتى تواصل عملها في مكافحة

> "... لقد كان الأمر بالنسبة لي بمثابة صدمة هائلة أفضت إلى تعويق وتغيير حياتي. وأعتقد أن هذه الصدمة قد أثبتت للكثيرين أنه لا يجوز لنا أن نعتمد على الحكومة كي تنقذنا، بل يجب علينا أن نقيم شبكات اجتماعية تتولى إنقاذ أنفسنا".

العنف العائلي. وقد كانت جامعة لويولا مؤسسة كاثوليكية تقليدية، وقد حصلت على منحة دراسية بها.

ومناهضة العنف قد صاغت هويتي النسائية، وهذا هو السبب في التحاقي عندما كنت قاصراً "بالدراسات النسائية" كطالبة جامعية، في نهاية المطاف. ولكنني أكتسب أيضاً هوية بالغة القوة فيما يتصل بمعاداة العنصرية ومناصرة السود. والتنميط والتمييز العنصريان قائمان مع بعضهما دون توقف.

وفي الكلية، التقت منديسا بالكثيرين من الجدد القادمين من ولايات وبلدان أخرى. ولكنها لم تعد تشعر مرة أخرى بأنها "تنتمي للآخرين"، وفي ذلك اليوم المسمى "عيد الوالدين"، طلب إليها ألا ترتدي قميصها الخفيف الذي طبعت عليه صورة وجه أنغيلا دافيز، الناشطة السوداء المعروفة. وبدأت منديسا في المشاركة في السياسة على الصعيد الجامعي، ولكن كان عليها أن تواجه مشكلة تشتت الجماعات المناهضة للتمييز، مما يعني عدم فعاليتها. والجماعات التي كانت تتناول موضوعي جنس المرء والسلوك الجنسي لم تكن مهتمة بقضايا العنصرية، والعكس بالعكس. وقد حاولت منديسا أن تهيأ صلات بين هذه الجماعات، وأصبح من المألوف لديها إلى أقصى حد أن تستمع إلى نفس الإجابة مراراً وتكراراً: "ولكن هذا ليس بالقضية الحقيقية".

ومع هذا، انتقلت منديسا للعيش في شقة هي وبعض من زميلاتها، فقد سئمت من بيئة الكلية، وأحست أن الحياة الجامعية، لدى الكثيرات، تدور حول إقامة الحفلات طوال الوقت، وتعاطي الخمر إلى حد السكر، وإهمال المحاضرات؛ ولم يكن الأمر متعلقاً بتحمل أية مسؤولية أو بمحاولة الإتيان بأي شيء نافع في هذا العالم. وهكذا، شرعت في الانسحاب من حركات النشاط الجامعي والعودة إلى عملها المجتمعي. وحضرت دورة دراسية عن "لاهوتية التحرير"، وقالت إن هذه الدورة قد غيرت حياتها، وإنها قد أصبحت تفهم أنها كانت تنظر إلى عملها السياسي من زاوية "مساعدة الآخرين"، لا من زاوية العدالة والتحرر. وبينت أنها قد أصبحت على يقين بأن محاولتها لـ "مساعدة" الفقراء تعني "اعتبارهم مختلفين" مما يماثل تماماً نظر الآخرين لها على أنها "مختلفة".

وبعد مرور أسابيع قليلة، وفي ربيع عام ٢٠٠٥، شاركت منديسا في مؤتمر من تنظيم مجموعة تسمى 'زيادة التفهم بشأن المرأة الملونة ومكافحة العنف'. وفي هذا المؤتمر، أحست أنها قد وجدت ساحة يمكن لها أن تتناول أسئلتها، لا واحداً بعد الآخر، بل في مشمولها. وكانت هذه المجموعة قادرة على، بل وراغبة في، ربط قضايا جنس المرء والعنصر والطبقات والعنف والجنس من أجل بيان الصورة بأكملها.

وبعد ذلك، جاء يوم الاثنين المشهود. والأعاصير ما برحت موجودة دائماً، ولكن الكثير من العلماء يرون أن قوتها وتواترها يجنحان نحو الارتفاع من جراء تغير المناخ، وما كان من شأنه أن يكون حدثاً بالغ الندرة سوف يصبح أكثر تكراراً على نحو مطرد. وإعصار كاترينا، الذي كان في مستوى عاصفة معتدلة من الفئة ١ لدى عبوره جنوبي فلوريدا، قد تزايدت قوته عند عبوره خليج المكسيك من جراء ما يسميه العلماء بـ "هبوط آلية التحطيم"، ففي حالة مرور الإعصار بمياه أكثر برودة يلاحظ أن شدته تتعرض للتضاؤل. أما إعصار كاترينا فقد ازدادت حدته، على النقيض من ذلك، في ضوء ما يوجد بخليج المكسيك من

مياه دافئة . ولدى وصول هذا الإعصار إلى جنوب لويزيانا في صباح يوم الاثنين ، كان قد تحول إلى عاصفة من الفئة ٣ واندفع محطماً شبكة الحماية في خمسين موقعاً ، حيث غمر ثلاثة أرباع المدينة .

وفي وقت مبكر من فصل الصيف ، عملت منديسا كساقية في حانة بالحي الفرنسي . وفي أحد أيام السبت ، اشتغلت منديسا حتى الساعة التاسعة صباحاً ؛ وكانت في غاية الإرهاق عندما اتصلت بها أمها هاتفياً وقالت لها إن الإعصار قادم في الطريق وأن عليها أن تترك المدينة ، والأسرة كلها ستذهب إلى منزل إحدى الخالات في أتلانتا . وردت منديسا بأنها لن تذهب معهم ، فهي قد وضعت بالفعل خططاً لذلك اليوم . ولم يستسلم أبواها أمام هذا ؛ فقد حضر أخوها الذي يكبرها سناً إلى شقتها في صباح يوم الأحد ، في نهاية الأمر ، حتى يحزم أمتعتها ويصحبها معهم إلى أتلانتا .

وكانت الصور التي عرضها التلفزيون في يوم الاثنين هذا لا تتسم بكثير من الإثارة ، وظنت منديسا أن الأمر لم يكن بالغ السوء رغم كل شيء . ولكنها تلقت في المساء رسائل قصيرة من صديقاتها تقول بأن السدود تتعرض للتحطم وأن المدينة مليئة بالمياه . وشرع التلفزيون في عرض ذلك أيضاً ، وبدأت منديسا تحس أن شيئاً فظيعاً يحدث في الواقع . وفي اليوم التالي ، قالت لها إحدى زميلاتها بشقتها في نيو أورلينز أن الشقة تعلوها المياه بمستوى ستة أمتار وأن كل شيء بها قد ضاع ؛ وبعد ذلك ، نما إلى علمها أن المركز المجتمعي الذي كانت تعمل به قد اجتاحته المياه تماماً ، وأن الجامعة لن تفتح أبوابها لمدة بضعة أشهر . وشيئاً فشيئاً ، داخلها إحساس بأن مدينتها لن تعود إطلاقا إلى ما كانت عليه .

وقد أدى إعصار كاترينا إلى مقتل ١٨٣٦ شخصاً على الأقل ، ولقد وصف بأنه " أكبر كارثة طبيعية في تاريخ الولايات المتحدة " . ومن المقدر أن الضرر الاقتصادي يزيد عن ١٠٠ بليون من دولارات الولايات المتحدة . وثمة آلاف عديدة قد فقدت مساكنها ، وفي الأيام الأولى للإعصار لم يكن أمام سكان المدينة أي مكان يمكنهم أن يأووا إليه . وحتى اليوم ، لم تستطع أعداد كبيرة أن تعود لديارها .

وفي نظر منديسا ، كان الأمر يمثل فوضى شاملة . ولم يكن بوسع أحد على الإطلاق أن يتمكن من مبارحة المدينة عندما صدر أمر بالإخلاء ، ولم يكن هناك معنى لكل ما حدث ، كما هو الحال عادة في غالبية الكوارث الطبيعية . وكانت منديسا في غاية الغضب:

> كيف تمكن المراسلون من دخول المدينة لتصوير المشرفين على الموت ، مع عدم قدرة السكان على الخروج منها. ولا أستطيع أن أفهم كيفية إجلاء الحيوانات من حديقة الحيوان قبل إجلاء السكان.

وعندما عادت منديسا إلى نيو أورلينز ، كانت تتساءل " كيف أعيش بكل ما أريد أن أعمله في هذا العالم ؟ " وكانت أول إجابة لها تتمثل في مشاركتها في قضية الإسكان حتى تعمل على إعادة المشردين إلى أماكن تناسبهم . وكان من شأن منديسا أن تنفق أياماً بكاملها وهي تنصت لضحايا الإعصار ، ممن كانوا ينتظرون أن تصدر لهم الأوامر بمبارحة أماكن الإيواء في أي وقت . وكانت ثمة مشاكل أخرى كثيرة أيضاً ، فالسكان كانوا عاطلين من جراء تحطيم الإعصار لأماكن

عملهم ، كما أن صناعة الخدمات قد عانت كثيراً في ضوء وقف السياحة . وكانت هناك أيضاً اضطرابات اجتماعية . فمنديسا قد فقدت كل ما كان لديها ، وبدأت في تعاطي المشروبات الكحولية ، كأسلوب للتكيف مع خسارة كبيرة إلى هذا الحد ، وكذلك شرعت في إعداد موقع تقوم بالتحدث فيه مع صديقاتها بشأن عواقب الإعصار:

> وعقب إعصار كاترينا هذا ، كانت هناك لدى كثير من الناس احتياجات تتصل بالصحة العقلية ، من قبيل تلقي المشورة والعلاج ، ولكن كانت ثمة صعوبة في الوصول إلى ذلك. وعلى نحو ما كانت تردد صديقة لي دائماً ' الكلب المجنون لا يكلف سوى دولاراً واحداً وتسعة وأربعين سنتاً '.

وفي مجال العمل ، تبين لمنديسا أنه في إطار هذه الكارثة الطبيعية وكوارث أخرى كثيرة ، يراعى أن النساء يملن نحو تحمل وطأة العبء ذي الصلة . وهن أكثر رؤساء الأسر المعيشية ضعفاً ؛ فعليهن أن يعتنين بالأطفال ؛ وقد يتعرضن للوقوع فريسة للعنف الجنسي ؛ وقد لا يكون بوسعهن أن يصلن إلى تلك الرعاية الصحية المحددة التي يحتجن إليها . وعن طريق امرأة سبق لها أن التقت بها في المؤتمر المتعلق بزيادة التفهم بشأن المرأة الملونة ومكافحة العنف ، الذي سبق ذكره ، تمكنت منديسا من الاتصال بالمبادرة النسائية للصحة والعدالة ، وأصبحت في عام ٢٠٠٦ جزءًا من مجموعة تتجه نحو إنشاء مستوصف صحي نسائي متخصص .

وقد كنا نتطلع إلى تهيئة مكان يمكن فيه للمرأة أن تحصل على رعاية صحية كلية ميسرة تتسم بجودة النوعية ، وذلك بالمجان أو بتكلفة ضئيلة ، في سياق بيئة بعيدة عن الأحكام المسبقة ، مع التسليم بأن السكان كانوا يتناولون مشاكل شخصية عديدة في أعقاب إعصار كاترينا.

وبالنسبة لكاترينا ، كانت هناك أهمية للاشتراك في معالجة الأسباب الجذرية لوجود شواغل صحية تتعلق بالمرأة ، وماذا يعنيه ذلك في سياق وضع لاحق لوقوع كارثة طبيعية . وبعد الكثير من الأعمال الطوعية وجمع الأموال ، افتتح المستوصف في أيار/مايو ٢٠٠٧ . وفي نفس الوقت ، تلقت منديسا منحة من إحدى المؤسسات ، وصار بوسعها أن تترك عملها كساقية في حانة ، وأن تشتغل على أساس التفرغ بوصفها منظمة مجتمعية ، وذلك مع كل من مبادرة صحة المرأة ومجموعة أخرى تسمى المعهد النسائي للدراسات العرقية ، وهذا في ميدان مشروع يتصل بفيروس نقص المناعة البشرية ومتلازمة نقص المناعة المكتسب (الإيدز) ، حيث ستصبح معلمة في حقل الصحة الجنسية .

وكانت منديسا قد انتهت بالفعل من كليتها ، وعندما كانت في عجلة من أمرها لم تشعر بأية حاجة إلى القيام بهذا في ذلك الوقت ، ولكنها لم تكن ترغب في فقد جهودها السابقة ، وقد تخرجت في مجالات التاريخ وعلم الاجتماع والعلوم السياسية والدراسات النسائية .

وكيف تقومين بتعريف نفسك ؟

إنني امرأة أعمل من أجل التحرر أو كقائمة بالتنظيم. وأظن أنني أشعر بالتردد فيما يتصل بالمصطلح الذي ينبغي استخدامه. ولكن كل شيء آخذ في التغيير إلى حد ما الآن ، حيث أنني قد التحقت بمدرسة القانون فيما يتصل بالعام القادم ، وذلك بجامعة ولاية لويزيانا ، التي تقع على مسافة ساعة واحدة من هنا.

ومنديسا لا ترغب في أن تصبح محامية كما تقول ، ولكنها تود بالأحرى أن تكتسب تلك المهارات القانونية التي ستكون بحاجة إليها في حقل عملها على الصعيدين الاجتماعي والسياسي . ومن ثم ، فإنها ستترك المدينة التي عاشت فيها طوال حياتها ، إلى جانب الأنشطة التي سبق لها أن اضطلعت بها ، وذلك من أجل الحصول على وسائل جديدة من شأنها أن تتيح لها مواصلة القيام بالتنظيم .

وكاترينا قد اضطلعت بدور رئيسي في كل هذا. وهي تقول لقد كان الأمر بالنسبة لي بمثابة صدمة هائلة أفضت إلى تعويق وتغيير حياتي. وأعتقد أن هذه الصدمة قد أثبتت للكثيرين أنه لا يجوز لنا أن نعتمد على الحكومة كي تنقذنا ، بل يجب علينا أن نقيم شبكات اجتماعية تتولى إنقاذ أنفسنا.

الكـوارث الطبيعيـة
النسـاء فـي مواجـهـة العـاصفـة

إن الأعاصير ، من قبيل إعصار كاترينا في عام ٢٠٠٥ ، تشكل أمثلة صارخة على الظواهر الجوية المتطرفة ، التي تحدث خسائر بشرية كبيرة ، وتحطم الهياكل الأساسية ، وتثقل الحكومات والمدن بآثار مالية مرهقة . ومع تغير المناخ وارتفاع درجات الحرارة ، يلاحظ أن الظواهر المترتبة على الطقس قد تصبح أكثر انتشاراً وأشد حدة . وثمة صعوبة في الاضطلاع بإسقاطات ما بشأن تلك الآثار المطردة ، ولكن المنتدى الإنساني العالمي قد اضطلع بمحاولة من هذا القبيل ، ووضع تنبؤات تشير إلى أن عدد الكوارث المتصلة بالطقس على الصعيد العالمي سوف يتضاعف في عام ٢٠٣٠ بالقياس إلى الفترة ١٩٧٥ – ٢٠٠٨[١] .

وفي الوقت الراهن ، تتسم المدن الساحلية في كل من البلدان المتقدمة النمو والبلدان النامية بالنمو والتوسع ، مما يرجع إلى الهجرة من الريف إلى الحضر ، فضلاً عن نمو السكان الطبيعي داخل المدن . وهذا النمو الحضري يفضي أحياناً إلى فقدان الأراضي الرطبة في دلتات الأنهار ، مما يعد أمراً متسماً بالإشكالية ، فالأراضي الرطبة لديها القدرة على معادلة آثار العواصف والفيضانات . ونفس الوضع ينطبق على الغابات ، ومن أمثلة ذلك تلك الأضرار الفيضانية التي وقعت بأمريكا الجنوبية عقب إعصار ميتش في عام ١٩٩٨ الذي كان أكثر شدة عما كان سيكون عليه الحال بدون إزالة الغابات في المنطقة[٢] . والمدن الكائنة بالمواقع الأخرى التي تتسم بالحساسية إزاء الأحداث الطقسية الكبيرة ، من قبيل الأودية والمنحدرات الداخلية ، تتعرض للنمو أيضاً ، مما يعني أن السكان الذين يعيشون في هذه المدن البعيدة عن الشاطئ يمكن لهم أن يتوقعوا تحديات مماثلة .

وآثار الكوارث الطبيعية فورية وذات أجل طويل في نفس الوقت . والآثار الأكثر فورية تتمثل في الخسائر في الأرواح والإصابات الناجمة عن الغرق أو الصعق الكهربائي أو الاختناق . وفي الشهور الأولى التي تعقب الكوارث المتصلة بالمياه ، مثل الأعاصير والفيضانات ، تتزايد احتمالات تفشي الأمراض التي تنتقل بالمياه أو بالحشرات . وترتفع الاحتمالات ذات الصلة في حالة وقوع تشردات سكانية كبيرة . ومع هذا ، وفي إطار الاستراتيجيات المناسبة ، يجري عادة منع تفشي الأمراض الرئيسية[٣،٤] . والتحدي الذي يواجه البلدان النامية يكمن في التكيف مع مزيد من تواتر المخاطر ، مما يتطلب هياكل أساسية وتمويلات إضافية ، وهذا يثقل كاهل الاقتصادات المجهدة بالفعل .

والآثار الطويلة الأجل للكوارث الطبيعية متعددة الأوجه ، وهي تتباين حسب مختلف الكوارث ، وذلك بناء على عوامل من قبيل نوعية الكارثة ، ومدى فعالية الاستجابة الطارئة ، وعدد السكان المتأثرين . وبصفة عامة ، توجد احتمالات لوقوع اضطرابات اجتماعية مع عرقلة وتعطيل سيادة القانون . ونواحي الصحة العقلية ، في الحالات التالية للكوارث ، قد لا تكون في مستوى بروز الإصابات البدنية أو الأضرار التي تصيب الهياكل الأساسية ، ولكن هذه النواحي تشكل ، مع هذا ، جزءًا كبيراً من الآثار ذات الصلة . وتصرفات السكان في مناطق الكوارث وبعد وقوعها قد تكون متسمة بالتباين ، مما يتضمن تحمل هؤلاء السكان لمزيد من المخاطر واضطلاعهم بأنشطة قد تضير بهم (مثل الإفراط في استهلاك الكحول) أو بغيرهم (من قبيل العنف) .

وفيما يتصل بالصحة الإنجابية ، تعد الكوارث وحالات الأزمات مبعثاً لبالغ القلق . ولدى تشرد السكان من جراء أزمة ما ، يراعى عادة أن النسبة المئوية للنساء الحوامل اللائي يعانين من مضاعفات مهددة للحياة تعادل النسبة المئوية للحوامل بصفة عامة ، ولكن الوصول لرعاية التوليد الطارئة قد تتعطل بشكل كبير . وتوزيع لوازم الصحة الإنجابية ، من قبيل الأدوية ووسائل منع الحمل ، قد يتقلص على نحو مؤقت ، في حالة تشرد السكان طوال فترات أطول أجلاً ، أو معيشتهم في مخيمات أو مساكن مؤقتة ، وثمة احتمالات أيضاً لزيادة بعض المشاكل من قبيل العنف العائلي والاغتصاب[٥] .

وبشكل عام ، يلاحظ أن النساء أكثر ضعفاً إزاء آثار الكوارث بالقياس إلى الرجال ، مما يرجع إلى وضعهن المتسم بالتبعية في المجتمعات التي يهيمن عليها الرجال . وعلاوة على ذلك ، كثيراً ما تتزايد حالات التفاوت القائمة على أساس جنس المرء أثناء الأزمات . والاضطلاع بالمهام الأسرية قد يكتسب مزيداً من الصعوبة في سياقات الأزمات التي يتعذر فيها الوصول إلى الوقود والمياه والغذاء . وبالإضافة إلى هذا ، فإن هيئات ومنظمات الإغاثة في حالات الكوارث قد تقوم ، من منطلق نظرها إلى الرجال باعتبارهم يضطلعون بإعالة الأسرة ، بالالتجاء إلى هؤلاء الرجال حتى تتمكن من الوصول إلى الأسر ، مما يلقي الظلال على النساء وما لهن من شواغل محددة ، وخاصة أولئك اللائي يرأسن بمفردهن أسراً معيشية . والانتعاش الاقتصادي للمرأة في أعقاب الكوارث كثيراً ما يستغرق مزيداً من الوقت بالقياس إلى الانتعاش الاقتصادي للرجل ، مما يرجع إلى هشاشة الوضع الاجتماعي ـ الاقتصادي للمرأة[٦] .

وفيما يتصل بالشباب ، قد تفضي الكوارث إلى حرمانهم من التعليم والخدمات الصحية والشبكات الاجتماعية ، وهذا يزيد من احتمال انخراطهم في ممارسات محفوفة بالمخاطر . والجهود المبذولة للتخفيف من آثار الكوارث (على الصعيدين القصير المدى والطويل المدى) ينبغي لها أن تراعي بالتالي ، من بين عوامل أخرى كثيرة ، أن الشباب ناشطون من الناحية الجنسية ، وأنه قد تحدث زيادة في حالات الحمل غير المرغوب فيه والإصابات التي تنتقل بالاتصال الجنسي ، وذلك في حالة تعطل الوصول لخدمات الصحة الإنجابية .

يونس

لاعب كرة قدم من المغرب يحاول التكيف مع حياة جديدة

ظن في البداية أن المسألة تتمثل في مطر لا يختلف عن أمطار كثيرة من قبل، ولكن المطر استمر بالفعل في هذه المرة طيلة أربعة أيام. وفي صباح ذلك اليوم من أيام شباط/فبراير ٢٠٠٩، كان يونس يثرثر ويلعب الورق مع أصدقائه في مكان لقائهم المعتاد، وهو مسكن متهدم يقع فوق تل في مدخل مدينته. ومدينته هذه كانت وادياً صغيراً يضم ما يقرب من عشرين مسكناً تقع على مشارف سليماني، وهي مدينة مأهولة بما يبلغ ١٥٠ ٠٠٠ نسمة وتقع في وسط المغرب. وهذه المنطقة، التي لا تبعد كثيراً عن الرباط العاصمة، مغطاة بتلال قليلة الارتفاع، وتسودها درجات حرارة معتدلة تناسب الزراعة. ويونس ليس فلاحاً، ولكن أباه يضطلع بالفلاحة. ومنذ اثني عشر عاماً، قدم أبواه إلى هذه المنطقة من الجنوب بالقرب من مراكش، بحثاً عن مكان أفضل لزراعة المحاصيل والمعيشة. والجنوب حار وجاف، ولكن سهول 'غرب' بالقرب من سيدي سليماني تتميز بمناخ أكثر اعتدالاً ورطوبة، كما أن تربتها أكثر خصوبة أيضاً. وفي هذا المكان، كان بإمكانهم أن يبتاعوا هكتارين من الأرض، وقد شرعوا في زراعة الموز والفراولة.

وفجأة في ذلك الصباح، وأثناء قيامهم باللعب، سمع يونس وأصدقاؤه شيئا غريباً، فلقد سمعوا صياحاً وتحركات مباغتة. ومن ثم، فقد خرجوا من ذلك المنزل المتهدم لمشاهدة ما يجري، ولقد رأوا جيرانهم يصيحون ويهرولون هنا وهناك، فمساكنهم كانت عرضة للانغمار بمياه الفيضانات. وكانت هذه المساكن مبنية بالطوب اللبن، ووصل مستوى المياه بالفعل في هذا الوادي إلى وسط السكان، وكان كل فرد يكافح من أجل إنقاذ ما لديه من فرش أو أثاث أو ملابس. وأخذ يونس وأصدقاؤه يجرون ويبحثون عن دلاء للمساعدة.

وفي حوالي الساعة الثالثة بعد الظهر، بدت الأمور وكأنها قيد السيطرة، حيث تم إخلاء المساكن التي كانت أكثر تأثراً من غيرها، كما أن المطر قد شرع في التباطؤ. أما الجيران فقد اعتراهم التعب والضيق، ولكنهم كانوا أكثر هدوءًا إلى حد ما. وفي نهاية المطاف، يلاحظ أن الأمر لم يكن أسوأ مما سبق لهم أن مروا به.

وفي تلك الليلة، ولدى تناول العشاء، أخذ يونس وأبواه يتحدثون عما وقع في ذلك اليوم. وتكلموا عما إذا كان محمد قد فقد مذياعه، وعما إذا كانت هناء قد تركت بدون ملابس لرضيعها. وقالوا إن الأمطار قد توقفت، وأن المياه لم تصل إلى مسكنهم الذي يقع على أرض تتسم بشيء من الارتفاع، على أقل تقدير. وفي حوالي الساعة التاسعة، كان يونس يشاهد التلفزيون، وحينئذ، كان ثمة مطر غامر قد بدأ في الدق بشدة فوق سطح المسكن. وفي الساعة الحادية عشرة، كان المطر لا يزال في هطوله بنفس الغزارة، وسمع يونس صياحات وأصوات لم يسبق له على الإطلاق أن سمعها، فلقد كانت هناك دقات عنيفة. وقد قال عنها فيما بعد أنها تشبه هرولة حيوان بالغ الضخامة. ومشى يونس إلى الخارج؛ حيث أمكنه أن يرى في الظلام أن المساكن على السفح تتعرض للغرق. فالنهر قد فاض على الجانبين، وكانت هناك مياه في كل مكان. وكانت الصرخات في منتصف الليل تبعث على الخوف.

وذهب يونس إلى الداخل لإحضار أبويه وأخيه. وما كادوا يرتدوا ملابسهم، حتى أسرعوا إلى قمة التل دون أن يأخذوا أي شيء معهم. وكان هذا هو وضع الآخرين وهم يصيحون ويطالبون بالمساعدة. وقد عم الخوف الجميع وهم يشاهدون أنفسهم منغمسين في المياه؛ وقد حاولوا وهم شبه متجمدين أن يحتموا تحت الشجر، ولكن المياه نفذت إليهم أيضاً. وكانوا يستمعون دائماً إلى صياح وضوضاء، ولكنهم لم يكونوا ملمين بمصدرها، فالظلام كان حالكاً، وقد افترضوا مع هذا أن الأمر يتمثل في أطفال يعدون هنا وهناك، مع قيام الآباء بالعمل على إخراجهم، وكانت هناك

محاولات لإنقاذ شيء ما أثناء الفرار. وبعد دقائق قليلة، كان هناك عشرون أو ثلاثون شخصاً تحت الأشجار يتحدثون همساً، وكأن ما يشعرون به من قلق قد اضطرهم إلى الكلام بصوت خافت، وكانوا يحاولون تفهم ما يدور حولهم.

وفيم كنت تفكر عندما كنت هناك؟

كنت أفكر في الموت، مجرد الموت. فلم أتعرض لتجربة مثل هذه من قبل. وظننت أنه لا يمكن لأي شخص أن يمد لنا يد المساعدة، وأن مستوى المياه سيظل يرتفع دون انقطاع، وأن هذه المياه ستغمرنا جميعاً وتقتلنا في نهاية المطاف.

> **"وقد كنت أحب دائما فكرة القيام بدور المعلم والمنظم ومدير الأمور ... كما أنني أرغب في القدرة على نقل معارفي للآخرين".**

والجميع تقريباً كانوا يبكون ويتضرعون إلى الله. وتوسل يونس إلى ربه أن يمكنه من الخروج من هذا المأزق حياً. ولكنه ظل يسمع ضوضاء وصياحاً، وظن أن عليه أن يقوم بشيء ما. وسار رجلان أو ثلاثة تجاه الفيضان، وقرر يونس أن يصحبهم.

إني ذاهب هناك لأوفر المساعدة.

أرجوك يا بني، لا تذهب، لا تفعل ذلك، أرجوك.

وحاول يونس أن يوضح لأمه أن عليه أن يذهب، وكانت أمه تبكي وتنهاه عن ذلك، وتقول له إنه إن مضى فلن يعود، بل سيموت هناك. وكانت تقول له كذلك إنه إن ذهب فإنها ستصاب بأزمة قلبية تقضي عليها. وبقي يونس متسمراً في مكانه، وفي وقت لاحق كان هذا القرار يثقل ضميره.

ولقد ولد يونس منذ اثنين وعشرين عاماً مضت، وحظي بطفولة هادئة. وكان يلعب كرة القدم مع أطفال مدينته، ويعوم في النهر، ويتحدث إلى أقرانه بشأن ما سوف يفعلونه عندما يتقدم بهم العمر. وكان يونس يحسن لعبة كرة القدم، كما كان شديد الإعجاب بنادي ريال مدريد: وقد تعود أن يقول إنه سيلعب في يوم ما، إن شاء الله، في فريق هذا النادي. ومع هذا، فإنه كان يحب أيضاً القراءة والدراسة، وكان من السهل عليه أن ينتهي من دراسته الابتدائية. ومضى بعد ذلك إلى المدرسة الثانوية، وتخرج من تلك المدرسة عندما بلغ العشرين من عمره؛ وفي العام التالي تمكن أبواه من إرساله إلى جامعة محمد الخامس في الرباط، حيث كان يونس يتطلع إلى مواصلة دراساته في اللغة الانكليزية. ورغم ذلك، لم يكن هذا في استطاعته، حيث لم تكن هناك أماكن متاحة في هذا القسم، ومن ثم، فإن يونس قد قدم طلباً للالتحاق بالدراسات الفرنسية. ولم يكن ناجحاً بالقدر الكافي في هذا المجال ـ فهو لا يحب اللغة الفرنسية، وكانت قواعد هذه اللغة بالغة التعقيد ـ وفي العام التالي عاد إلى مدينته. وهناك، بدأ يونس في العمل مساء كل يوم في مقهى صغير من مقاهي الإنترنت، والتحق ببرنامج لتصميم الأزياء لمدة عامين. وكان يظن أنه عندما سيتقدم به العمر، سيصبح في وسعه أن يقوم بتصميم البنطلونات المصنوعة من الجينز، وأن يحصل بالتالي على عمل في مدينة كبيرة، وأن "يحيا حياة رغدة". وثمة عديدون من جيرانه قد رحلوا بالفعل، فالأرض قد أصبحت أقل إنتاجية إلى حد كبير من جراء إجهاد التربة. وقد هاجروا إلى المدن الكبيرة، أو تركوا البلد بكامله.

وماذا يعني تعبير "الحياة الرغدة" بالنسبة لك؟

الحصول على عمل ومسكن وسيارة وزوجة فائقة الجمال. وهذه هي الحياة الرغدة.

ولقد جاءت تلك الليلة التي ذهبت فيها المياه بكل شيء. وتحت الأشجار، شاهد يونس كيف أن المساكن قد تقوضت من جراء ثقل المياه، أو بالأحرى سمع عن ذلك. وكان يونس على اقتناع بأنه لا شيء من هذا يجري في الواقع، وأن المسألة تتمثل في حلم مزعج قد ألم به، وأنه ليس بوسعه أن يستيقظ.

وفي الساعة الرابعة صباحاً، سمعوا أصوات بعض المحركات؛ وكانت هذه أول معونة تصل إليهم. إنهم أولئك الأشخاص الذين قدموا إلى المنطقة في قوارب أو زوارق صغيرة من النوع

البروجي لمحاولة مساعدتهم. وقرابة الفجر توقف المطر، وبعد ساعات قليلة تمكن يونس ووالداه من العودة إلى مسكنهم، الذي كان الآن بمثابة حطام من الطين والأحجار والأثاث وسائر الأشياء التي حطمتها المياه. وحاولوا أن يهيئوا مكاناً ما يستريحون فيه ولكنهم لم يتمكنوا من ذلك. وشيئاً فشيئاً، تبين ليونس أنه لم يعد لديهم مسكن، وأن حياته لن تصبح على الإطلاق كما كانت منذ تلك اللحظة.

ولكن الطامة الكبرى كانت مازالت في الطريق، فبعد قليل علم يونس أن علي، أعز أصدقائه، قد قضى نحبه هو وجميع أفراد أسرته، وذلك عندما تقوض سقف مسكنهم.

ولا أزال أفكر في تلك الليلة طوال الوقت. ولا أستطيع أبعدها عن ذهني، فهي تؤلمني دون انقطاع.

وفيم تفكر بالضبط؟

إني ألوم نفسي. نعم، إني أنحو باللائمة على نفسي، حيث لم أفعل شيئاً من أجل الآخرين، ولم أستطع أن أساعد أحداً. ولاسيما صديقي، الذي كنت أعزه كثيراً، ولم أفعل أي شيء من أجله...

ولماذا لم تتمكن من مساعدته؟

لقد سبق لي أن أجبتك، فقد كنت أخشى الموت. ولم أشأ أن أزعج أمي... لا أدري، لقد كان من واجبي أن أفعل المزيد من أجل مساعدة الآخرين، بدلاً من الاكتفاء بالنظر إلى ما يدور حولي.

وفي حوالي العاشرة صباحا، كانت المياه قد بدأت في الانحسار، وكان كل شيء مغطى بالوحل والقمامة وكتل من أشياء أخرى، فضلاً عن الحيوانات النافقة. ولم تصل خدمات المعونة الحكومية إلا قرابة الظهيرة، أي في وقت بالغ التأخر لا يسمح بإنقاذ عدد كبير من الأشخاص. ولم يكن أمام هذه الخدمات إلا أن تزيل الحطام وأن تجمع الجثث. وفي عصر ذلك اليوم، حاول يونس وأسرته أن يستريحوا في مأوى مؤقت من الأغطية وألواح البلاستيك. وكان يونس يشعر بالإجهاد، ولكنه لم يستطع التوقف عن التفكير في صديقه الراحل ومسكنه المفقود وحقله المخرب ومستقبله الضائع.

وما سبب حدوث كل هذا في ظنك؟

يتمثل السبب في الطقس، الذي تعرض للتغير كثيراً من جراء العولمة. فهناك أعداد لا حصر لها من السيارات والحافلات والأشخاص والصناعات، مما يغير من المناخ ويسبب وقوع أمور من هذا القبيل. لقد فقدت مسكني وأرضي وأصدقائي...

وفي تلك الليلة، وصلت أفرقة أخرى للمعونة تحمل خياماً وأغذية. ومن بين من حضروا، السيد نصري وهو رئيس جمعية تقديم المساندة في مجال صحة الشباب. وهو شاب يبلغ الرابعة والعشرين من عمره ويعيش في الرباط، وقد تلقى في ساعة مبكرة من الصباح طلباً بتقديم المساعدة من أعضاء الرابطة المحليين. وخلال ساعات قلائل، كان قد انتقل إلى المنطقة ما يقرب من ٤٠ من المتطوعين من شبكة تعليم الأقران هذه.

وعند وصولنا، لم نصدق ما نراه: فكل شيء كان مغطى بالمياه. وكان أول ما فعلناه يتمثل في الدخول إلى المنطقة ببعض القوارب التابعة لدائرة الحماية المدنية من أجل محاولة إنقاذ أولئك اليائسين ممن كانوا مازالوا محاصرين فوق أسطح مساكنهم.

وفي نفس هذا الصباح، وجدوا رئيس الفرع المحلي للرابطة. ولقد وجد هذا الرجل نفسه محاصراً دون مخرج أثناء قيامه بمحاولة إنقاذ أحد الغرقى في الطين. وتلك الحفر الطينية كانت تشكل أكبر خطر قائم؛ فهي مغطاة بطبقة سطحية من المياه، وعند خطو أحد فيها دون تبصر، يراعى أنه قد يقع أسيرا دون فكاك. وحاول نصري أن يخرج الرجلين ولكنه لم يستطع، وبعد لحظات لا نهاية لها من الشد بالحبال، تمكنوا في نهاية المطاف من إخراجهما. وبعد ساعتين، وبعد أن عادوا بصديق نصري إلى المدينة، علم الرجل بغرق أمه وأخته.

ولكن ثالثة الأثافي قد وقعت في اليوم التالي عندما شاهدنا أسرة متجمعة على سطح مسكنها. ورآنا أفراد هذه الأسرة، وشرعوا في المطالبة بالمساعدة. وكنا في طريقنا إليهم عندما استمعنا إلى تحذير من خلال

اللاسلكي. ولقد قيل لنا أن ثمة موجة جديدة من المياه على وشك الوصول، وأن علينا أن نرحل. وحاولنا أن نصل إلى هذه الأسرة لمساعدتها، ولكننا رأينا المياه قادمة وكان علينا أن نتراجع.

وهل وافقت على قرار التراجع هذا؟

لم يكن أمامنا أي خيار. فإذا بقينا في مكاننا، لكان الموت من نصيبنا أيضاً. ولكن الأمر بالغ الشناعة. فقد اعتراني شعور بالحزن في غاية العمق. ولفترة طويلة، لم يكن في استطاعتي أن أغمض جفني.

وعمل شباب الرابطة دون توقف لمدة ثلاثة أيام وثلاث ليال، حيث التقى بهم يونس في هذا السياق. وبعد بضعة أيام، وعندما قرر والد يونس أن يصحب أسرته بكاملها إلى مسكن ابنه الأكبر في الرباط، قام هؤلاء الشباب بمساعدتهم. ولم تكن أسرة يونس هي الأسرة الوحيدة التي خلفت كل شيء وراءها. ، وكان في المنطقة كثير من المساكن والشوارع والمدارس الخربة، كما كانت ثمة حاجة إلى بذل جهود ضخمة من أجل استعادة إنتاجية الأرض. والأرقام المعنية ليست دقيقة، ولكن ما يقدر بنسبة ٤٠ في المائة من سكان المنطقة لم يعودوا حتى الآن ـ والكثير منهم لا ينوي العودة.

وهل تنوي الرجوع إلى مدينتك؟

لا، على الإطلاق.

ولماذا؟

لأسباب كثيرة. فأنا أحاول أن أنسى كل هذا، وأن أفكر في مستقبلي. ولا أظن أن أحداً منا سوف يعود. ولم يبق لنا أي شيء في المنطقة، كما أنه ليس لدينا ما نفعله هناك. وأعز أصدقائي قد قضى نحبه، فلم العودة إذن. وإنني أفضل أن أفكر في الوقت الذي قضيناه معاً ...

والآن، وبفضل جمعية تقديم المساندة في مجال صحة الشباب، يقوم يونس بأخذ دورة دراسية لمدة ستة أشهر حتى يتعلم كيفية استقبال نداءات الاستغاثة بأحد مراكز الاتصال. وفي نفس الوقت، يضطلع يونس بعمل من أعمال البناء، وتتألف مهمته من نقل الدلاء والأحجار وقوالب الطوب، وهو يتلقى ٥٠ درهماً ـ أي حوالي ٦ دولارات أمريكية ـ لقاء يوم عمل ممتد لفترة سبع أو ثماني ساعات.

وهذا ليس بالأمر الذي ينبغي لي أن أقوم به. فإني حاصل على شهادة؛ وليس هذا بالعمل الحقيقي بالنسبة لي.

وهو يقول ذلك وهو يشعر بشيء من الخجل.

وهذا العمل مؤقت، وعلي أن أنهض به حتى أدبر أمري وأساعد أسرتي، وأنسى كل هذا، وأبدأ العيش من جديد.

ويونس يشعر بالحزن والاضطراب. وهو يظن أنه قد يتمكن من الذهاب إلى انكلترا، التي كانت دائماً جذابة بالنسبة له. وهو يرى أن لديها الكثير مما تقدمه لمن يريد العيش فيها. ومن السهل الحصول على عمل هناك لمن يحمل شهادة على سبيل المثال. وفي نفس الوقت، يلاحظ أن يونس مازال يضطلع بالدورات الدراسية ويعمل أيضاً، كما أنه يحاول أن يستمتع بنفسه بعضاً من الوقت. فهو يحظى بخليلة، ولكنه يقول أنه لا يوجد بينهما شيء جاد في الوقت الراهن على الأقل، فهي مجرد فتاة يقوم بالتحدث إليها واللهو معها.

والمراهقون، كما تعلم ...

ولكنك تبلغ الثانية والعشرين.

ويضحك يونس لأول مرة، ويعترف بما يلي:

نعم، إنني في الثانية والعشرين، ومن الأفضل لي أن أكون جاداً إذا ما شئت أن يكون لي مستقبل ما.

الهجـرة
تزايد درجات الحرارة وانتقال السكـان

في وقت مبكر يرجع إلى عام ١٩٩٠ ، صرح الفريق الحكومي الدولي المعني بتغير المناخ بأن أشد آثار تغير المناخ ، التي تتصل بالسكان ، قد تكون متمثلة في تشريد هؤلاء السكان[١] . وقد تحدث تقرير هذا الفريق عن " ملايين " السكان . واليوم ، لا تزال الهجرة من القضايا الرئيسية عند مناقشة آثار تغير المناخ ، وإن كان وضع تقديرات ما يعد بالغ الصعوبة ، من جراء الافتقار إلى البيانات اللازمة وتعقد قضايا الهجرة ، وخاصة فيما يتعلق بالتفرقة بين الهجرة الطوعية والهجرية القسرية . وقد أشارت المنظمة الدولية للهجرة إلى أن الإسقاطات المتصلة بالسكان المتنقلين من جراء تغير المناخ تتراوح بين ٢٥ مليون و ١ بليون نسمة[٢] . وهذه الفوارق المرتفعة إلى حد ما في الإسقاطات ذات الصلة تستند إلى ما سيختار كقاعدة من تصورات الفريق الحكومي الدولي ، وكذلك إلى ما سيستخدم كتعريف لمصطلح " الهجرة " . ومن الواضح ، مع هذا ، أنه بإمكاننا أن نتوقع حدوث زيادة كبيرة في انتقال السكان بسبب تغير المناخ .

ويوجد بصفة أساسية عنصران حافزان بيئيان يمكن لهما أن يفضيا إلى الهجرة ، وهما الأحداث الهجومية المفاجئة ذات التأثير المباشر ، من قبيل الأعاصير والفيضانات وحالات الجفاف ، والأحداث الهجومية البطيئة ، أي التطور التدريجي للبيئة ، مثل ارتفاع مستويات سطح البحر[٣] . وفي الوقت الذي لا يمكن فيه أن تعزى جميع التغيرات البيئية على نحو واضح لتغير المناخ ، يراعى أنه من المتنبأ لتغير المناخ أن يزيد من قوة وتواتر هذين العنصرين الحافزين . ولما كانت هاتان النوعيتان من الأسباب المتعلقة بالهجرة يمكن اعتبارهما تقريباً من الأمور المزدوجة ، فإنه يلاحظ أن ثمة فوارق كبيرة بين الخصائص والاستجابات ، والعقبات بالتالي .

والأعاصير والفيضانات من الأحداث التي يسهل تحديدها عند وقوعها ، ومن الممكن إلى حد ما أن يتنبأ بالمواقع المحتملة لحدوثها . وعلى أساس هذه المعارف ، يمكن أن توضع استراتيجيات التخفيف ، فضلاً عن استراتيجيات التكيف المبكر . ومن ناحية أخرى ، لا سبيل إلى التنبؤ بكيفية تأثير تغير المناخ على موعد وموقع حدوث الكوارث الطبيعية في القرن القادم . وفي إطار ظروف تدعو إلى الأسف ، قد يكون تغير المناخ في غاية السوء ، مع احتمال نزوح جماعات سكانية ضخمة بصورة مؤقتة من ديارها ، مع عدم تمكن هذه الجماعات من العودة طوال سنوات عديدة .

وفي الوقت الذي تعيش فيه جماعات سكانية عديدة من تلك الجماعات ، التي قد تضطر أكثر من غيرها إلى الهجرة بسبب تغير المناخ ، في البلدان النامية ، فإن الفئات السكانية الأشد فقراً والأكثر ضعفاً قد لا تكون هي المرشحة بالدرجة الأولى للهجرة . والهجرة ، بوصفها استراتيجية للتكيف ، تعد باهظة التكلفة . ومن الحري بالشخص المعني عادة أن يتوفر له رأسمال وشبكة اجتماعية في مكان المقصد . وعلاوة على هذا ، فإن الهجرة تعوق الحياة الثقافية والسياسية . ومن ثم ، فإن الهجرة المترتبة على تغير المناخ لن تعتمد على مجرد التغير الفعلي للمناخ ، بل إنها ستعتمد أيضاً على عوامل اقتصادية وثقافية وسياسية واجتماعية[٤] .

وهذا يعني أن الاستجابات للتحركات السكانية المترتبة على تغير المناخ ينبغي لها أن تتضمن مراعاة مزيد من العوامل . وعلى سبيل المثال ، يعتبر المنظور المتعلق بجنس المرء أساسياً ؛ سواء كانت الهجرة مؤقتة أم دائمة . والنساء المشردات أكثر ضعفاً من الرجال ، فكثيراً ما يكون مركز النساء دون مركز الرجال ، مع هبوط المستوى المتوقع للاهتمام باحتياجاتهن بالقياس إلى احتياجات الرجال .

وعند الاضطلاع بحياة جديدة بعد القيام بهجرة دائمة ، قد يتأثر الوضع الاجتماعي ـ الاقتصادي للمرأة المهاجرة بقيام هذه المرأة المهاجرة ، في نهاية المطاف وفي أكثر الأحيان ، بالعمل في القطاع غير الرسمي أو في مجال الأعمال المنزلية ، في ظل شروط عمل واهية بصفة خاصة . والمرأة المهاجرة قد تتعرض لشواغل صحية تتصل بالصعوبات التي يحتمل وجودها في ميدان الوصول للخدمات الاجتماعية بصورة عامة وخدمات الصحة الإنجابية بصورة خاصة ، من جراء الحواجز اللغوية والفواصل القانونية و/أو المالية . والأمن من القضايا المثارة أيضاً في هذا الشأن ، فالنساء المهاجرات أكثر تعرضاً للعنف العائلي ولإساءة المعاملة[٥] .

وفي الوقت الذي توجد فيه بعض التحديات ، يجدر بالذكر أن الهجرة تمثل ، بالنسبة لجماعات سكانية بعينها ، وسيلة ضرورية للتكيف مع تغير المناخ في القرن القادم . والهجرة مابرحت قائمة طوال تاريخ البشرية في الواقع ، وذلك بوصفها استراتيجية من استراتيجيات التكيف . وثمة أهمية بالغة ، بالتالي ، لإيلاء الاهتمام الواجب لتلك الشواغل المتعلقة بالسكان المهاجرين ، بما فيهم النساء المهاجرات والشباب ، سواء قبل التحرك أم خلاله أم بعده .

لمحة

فاطمة

ناشطة من نيجيريا وعضوة تنظيمية
استبدال خشب الوقود بهاتف خلوي

لم ترغب فاطمة إطلاقاً في أن تكون موجودة حيث كانت. وعندما كانت ترى إخوتها وأخواتها يذهبون إلى المدرسة، كانت تبكي لأنها لا تستطيع الذهاب معهم. ومع هذا، فعندما شرعوا في أخذها إلى المدرسة، كانت تبكي أيضاً لأنها لا تريد البقاء بمفردها. وكان يخالجها شعور دائم بأن الأمور ليست كما ينبغي على الإطلاق، وأن عليها أن تظل تبحث عن شيء آخر.

ولقد ولدت فاطمة في عام ١٩٨٦ في جوس، وهي مدينة تضم نصف مليون من السكان وتقع في وسط نيجيريا. وأبوها، واسمه أبو بكر، يشغل منصباً إدارياً في شركة من شركات التعدين؛ وهو يمتلك مسكنه وسيارته، وبوسعه أن يعول أطفاله العشرة الذين رزق بهم من عائشة، وهي امرأة تقية ومخلصة تنفق ما يتبقى لديها من وقت فراغ قصير في معالجة وغزل الخيوط حتى تساهم في تدبير أبسط الاحتياجات.

وعندما كانت فاطمة في سن الطفولة، كانت محاطة بإخوتها وأخواتها، وكانت حياتها يسيرة على نحو عام. وكان عليها أن تمشي لمدة ساعة للذهاب إلى المدرسة والعودة منها، ولكنها عند عودتها كانت تجد دائماً بمنزلها طعاماً حسن المذاق، وكانت تغفو قليلاً قبل قيامها بالمساعدة في المهام المنزلية، كما كانت تقوم كل يومين بغسل ملابسها. وكان على فاطمة وإخوتها أن يضطلعوا بمسؤولياتهم قبل الخروج للعب.

وفاطمة تنتمي إلى قبيلة صغيرة، وهي قبيلة إغبيرا. وفي كل عام كانت أسرتها تسافر إلى "مدينتها الأصلية" على الرغم من أنه لم يولد بهذه المدينة، واسمها توتو، أحد من أفرادها، ولكنها مدينة أجدادها. ولقد كانت مدينة هادئة تتيح لهم التعرف على تراثهم. وفي هذه المدينة، تعلمت فاطمة، على سبيل المثال، أن تحترم من يكبرونها في السن: إنه لا ينبغي لها ألا تكتفي بالانحناء لهم، بل إن عليها أن تركع أيضاً. وكانت فاطمة تقوم بذلك، ومع هذا، فإنها كانت تستفسر عن السبب. وقد دأبت على التشكك في العلل المتصلة بكل شيء. وكانت تتساءل، على سبيل المثال، عن سبب عدم رؤيتها إطلاقاً لامرأة تقود سيارة، وكذلك عن سبب قيام الرجال وحدهم في التلفزيون بالدفاع عن حقوق المرأة. وفي المنزل، استمعت فاطمة مراراً لذلك المثل الإفريقي الذي يقول بأن "من يلبس الحذاء هو الذي يحس بموضع اشتداد الألم"، ولكن هذا لم يكن منطبقاً لسبب ما على المرأة.

وكانت فاطمة شغوفة بصفة خاصة بأحد البرامج التلفزيونية التي تذاع في قناة محلية، وهو برنامج "منظورات الشباب" الذي كان يقدمه السيد كنغسلي بانغويل. وكان يتحدث عن القضايا الصحية وفيروس نقص المناعة البشرية والبيئة ومشاركة الشباب واضطلاعهم بتنظيم المشاريع. وكانت فاطمة تأمل في يوم ما أن تذهب لتراه، ومن ثم، فإنه عند حضور السيد كنغسلي إلى مدرستها ومطالبته بأفراد للمساعدة في شؤون المجتمع المحلي، اعتقدت الفتاة أن هذا بمثابة إيماءة لها. وفي اليوم التالي، أصبحت فاطمة ـ التي تبلغ اليوم السادسة عشرة ـ متطوعة في "مؤسسة النجوم الشابة".

وكان الأمر مثيراً للعقل. وكانت هناك مصادر للقراءة لا حصر لها، فضلاً عن إمكانية تعلم كم هائل من الأمور. وبدأت في ممارسة مشاركة الشباب وقضايا الإدارة والتمكين الاقتصادي والتنمية المستدامة.

وفي مؤسسة النجوم الشابة هذه، رأت فاطمة الحاسوب لأول مرة. ولقد شرحوا لها استخداماته. وقاموا أيضاً بتعليمها كيفية صناعة مستحضرات التجميل والصابون والشمع، فضلاً عن طريقة صباغة الملابس، وذلك حتى تتمكن من تدريب الشباب العاطلين. وفي البداية، لم يكن لديها قدر كاف من الثقة في النفس،

ولكن هذه الثقة قد تزايدت على نحو تدريجي. وكانت تحب أن تشعر بأنها تستطيع القيام بشيء له جدواه، وأنها لم تعد من المتفرجات بل من اللاعبات. واستمر هذا الحال إلى أن وقع أمر لم تكن تتوقعه، مما غير حياتها، فقد تعرضت أمها لنوبة دماغية وأصيبت بالشلل. وبعد أشهر قليلة، ماتت الأم إثر نوبة تالية.

ولقد أحببت دائما أن أظل طفلة. فالأطفال في غاية البراءة وكل شيء يدور حولهم دون مشقة. ومع ذلك، فعندما ماتت أمي، اعتراني شعور كبير بالمسؤولية، حيث أصبح من الواجب عليَّ تلقائياً أن أبدأ في الاعتناء بإخوتي وأخواتي، وهنا أدركت أنني لم أعد في عداد الأطفال.

> "... ولم أكن أدري أنني أسبب الضرر لنفسي ولسائر العالم، سواء من جراء قطع الأشجار أم بسبب إحداث انبعاثات لغاز ثاني أكسيد الكربون".

وأحست فاطمة أن عالمها قد تعرض للتقوض، وأخذت تتساءل عن معنى الاستمرار في الحياة. ومما كان يبعث فيها شيئاً من الراحة، أن تقول لنفسها أن أمها قد عاشت معيشة طيبة، وإذا كان خالقها قد قضى بوفاتها، فلابد أن لديه سبحانه أسباباً لذلك. وعندما أحست أنها مستعدة، كتبت مقالة عن أمها تحت عنوان لا تستسلم أبداً. وكان هذا هو الدرس الذي تعلمته فاطمة من حياة أمها، كما كانت هذه أول مرة تقوم فيها بكتابة شيء ما بهدف نشره؛ وقد أعجب بكتابتها من قرأوها وشجعوها على مواصلة المسيرة. وفكرت فاطمة في كتابة رواية تتضمن قصص الحياة الحقيقية لمثيلاتها من البنات. وهكذا بدأت في كتابة قصة وجه إفريقيا وهي قصة تنوي نشرها قريباً، وبعد ذلك قصة أمازون القرينة. وغيرت رأيها أيضاً فيما يتصل بأن تصبح طبيبة، حيث كانت مهنة الطب تمثل دائماً محط آمالها؛ وهي لم يعد بوسعها على الإطلاق أن تنظر إلى شخص مريض دون أن تفكر في أمها.

ولقد انتهت فاطمة من المدرسة الثانوية، ولكنها لم تذهب إلى الجامعة، فأسرتها لا تستطيع أن تتحمل رسوم التعليم. وقد استمرت في الاضطلاع بأعمال مجتمعية، وعن طريق ذلك، تمكنت من مقابلة أشخاص من المجلس البريطاني. وبعد أشهر قليلة، وقع الاختيار عليها للمشاركة في "التبادل العالمي"، وهو برنامج للشباب من نيجيريا وانكلترا. وبفضل هذا البرنامج، ستقضي فاطمة ثلاثة أشهر في برمنغهام بانكلترا.

وكانت هذه هي أول مرة أبتعد فيها عن بلدي، وأحسست بالحنين إليه. وكان كل شيء مخالف هنا. وثمة شيء واحد جعلني أشعر بالدهشة، فكل الأمور كانت في غاية الانتظام وانضباط المواعيد، ابتداء من الاجتماعات وانتهاء بالحافلات.

ومع هذا، فقد تبين لها أن الأطعمة عديمة المذاق، ولقد صدمها، إلى حد كبير، أن ترى الشباب يشربون ويدخنون في الشارع، ويلبسون دون أي تواضع، ويعاملون كبار السن كما لو كانوا من أقرانهم. وبدأت فاطمة في الشعور بمزيد من التقدير لبلدها. وقد يكون بلدها فقيراً، كما تظن، ولكنه بلد يتسم بقيم لا يجوز التخلي عنها. ولقد كانت مشغولة إلى حد بعيد، فقد كانت تعمل مع النساء في ملجأ للمشردين، وكذلك فيما يتصل بحملة للوقاية من فيروس نقص المناعة البشرية ومتلازمة نقص المناعة المكتسب (الإيدز). وتعلمت أنه حتى في بلد غني، مثل انكلترا، لا يعد كل فرد في رغد من العيش.

وعندما عادت فاطمة إلى جوس، شرعت في العمل مع منظمة "ربيع الحياة" – وهي منظمة غير حكومية تهتم بقضايا فيروس نقص المناعة ومرض الإيدز – وكانت تحاول أن تقدم المساندة اللازمة للمرضي حتى لا يفقدوا الأمل، وأن توضح لهم أن بوسعهم أن يعيشوا بمرضهم سنين طويلة لو أنهم اعتنوا بأنفسهم على نحو سليم. وفي نهاية المطاف، بدأت في العمل كمتطوعة في مركز التخطيط والعمل من أجل الشباب والمراهقين – وهو منظمة غير حكومية كان من شأنها أن أتاحت لفاطمة منذ البداية فرصة العمل بشأن مشروعها، وهو مشروع "الفتيات من ذوات البصيرة". وبعد ذلك عملت – بل ولازالت تعمل – في ميدان تنظيم حلقات عمل بشأن مجموعة متنوعة من القضايا، وأولها كانت تتعلق بقضية الصحة الإنجابية والوقاية من الأمراض التي تنتقل بالاتصال الجنسي.

وثمة قلة ضئيلة من البنات المسلمات من نيجيريا يمكنهن أن يعملن مثلي. فالنساء هنا يتسمن بقدر كبير من السلبية. وهذه هي ثقافتنا، فمن المفروض فينا أن نكون ربات للبيوت، ولا شيء غير ذلك. ولكن هذا هو السبب أيضاً في وجوب الاضطلاع بمزيد من العمل.

وكانت فاطمة في التاسعة عشرة من عمرها، ولم تكن لديها خطط للدراسة، فهي كانت تعمل بالفعل ما تريده، وبدت لها الدراسة بالتالي وكأنها مضيعة للوقت. وبعد ذلك، كان من الواضح لها أنها بحاجة " لا إلى مجرد الرغبة في تغيير حياة الآخرين، بل إلى معرفة كيفية القيام بذلك ". كما تيقنت من أن " من الواجب عليها أن تحصل على تعليم جامعي ".

وعلى الرغم من عدم حيازتها لأي من المال الضروري، تقدمت للتعليم الجامعي، ولدى قبولها، تولى مركز التخطيط والعمل من أجل الشباب والمراهقين إقراضها ما تحتاجه. وفي ضوء عملها في المجتمع المحلي، قررت أن تدرس علم النفس. وهي اليوم في السنة الثالثة، ولا تزال تعمل بالمركز وأيضاً بتلك الحملات المتصلة بالعمل من أجل تقديم المعونة لمكافحة الجوع ومساندة الحق في الغذاء. وهي تتسم بالنشاط في ستة أو سبعة مشاريع أخرى أيضاً، وليس لديها وقت ــ بل ولم يكن لديها وقت في يوم من الأيام ــ لخليل ترافقه. ومع هذا، وفي العام الماضي، وعندما سمعت لأول مرة عن تغير المناخ في اجتماع لقدامى العاملين ببرنامج " التبادل العالمي "، أحست أنه يجب عليها أن تقوم بشيء ما.

وكان الأمر بمثابة صحوة بالنسبة لي. فإني أستخدم خشب الوقود في الطهي، ولم أكن أدري أنني أسبب الضرر لنفسي ولسائر العالم، سواء من جراء قطع الأشجار أم بسبب إحداث انبعاثات لغاز ثاني أكسيد الكربون. وكان من عادتي أن ألقي بالعلب الصفيح والزجاجات في أي مكان، وهذه الأشياء ستبقى من بعدنا وستضير الأجيال القادمة.

وفاطمة ما تزال تطهو باستخدام خشب الوقود، حيث لا يوجد خيار آخر أمامها، ولكنها ستحصل قريباً على موقد خاص من صنع منظمة من المنظمات المهتمة بشؤون البيئة، ويتميز هذا الموقد بقلة استهلاك الوقود وضآلة انبعاث الغاز منه. وقد استحوذت اهتمامها أيضاً مشكلة المياه في مدينتها، وهي مشكلة تؤثر عليها بصورة مباشرة. فمنذ عشر سنوات، لم تعد هناك مياه في صنابير مسكنها ولا مساكن الحي كله، وبعد ذلك، نفدت المياه من البئر الذي كانت تستخدمه، وكان لابد من بناء بئر جديد، ولم يكن هذا البئر الجديد يوفر مياهاً للشرب. والأمر لا يتعلق بفاطمة وحدها، ففي سياق الافتقار إلى الهياكل الأساسية، يلاحظ أن غالبية الأفارقة تعاني دائماً من مشاكل كبيرة فيما يتعلق بالحصول على المياه، وقد تفاقمت هذه المشاكل في السنوات الأخيرة من جراء قطع الأشجار على نحو عشوائي وأيضاً من جراء حالات الجفاف التي ترتبط بتغير المناخ.

وبدأت فاطمة في التفكير ملياً بشأن هذه القضية، وبلغتها معلومات عن برنامج لمنظمة المعونة المائية، وهذا البرنامج يقدم ألف دولار من دولارات الولايات المتحدة للشباب الذين يرغبون في استخدام التكنولوجيات الجديدة للاضطلاع بمشروع يتعلق بالمياه والمرافق الصحية. ولكن فاطمة، التي تبلغ من العمر ٢٢ عاماً، كانت أكبر سناً من أن تقدم طلباً للاشتراك في هذا المشروع، وهنا انضمت إليها شقيقتها أمينة، وهي في السابعة عشرة، حيث قدمتا مع بعضهما فكرة تتضمن تجميع طائفة من الشباب من مختلف المجتمعات كي تقوم عن طريق الهواتف الخلوية بتصوير تلك المشاكل المترتبة على نقص المياه وشبكات المرافق الصحية أو سوء استخدامهما- ومن الملاحظ في نيجيريا التي لا تعمل فيها إطلاقاً خطوط الهواتف الأرضية أن كافة سكان المدن تقريباً لديهم هواتف خلوية. ويجري بعد ذلك تحرير فيلم تسجيلي مدته ١٥ دقيقة مع عرضه ومناقشته في المدارس، والقيام في وقت لاحق بتشكيل مجموعات تضطلع بالعمل بشأن القضية ذات الصلة وبمطالبة الحكومة المحلية باتخاذ الإجراءات اللازمة. ولقد قبل هذا الاقتراح الذي سيبدأ فيه العمل في وقت قريب.

ولماذا اخترت موضوع المياه ؟

يرجع السبب في ذلك إلى أنني لم تكن لدي مياه جارية لمدة عشر سنوات، وإلى أن الجميع يشتكون من هذا الأمر، وإلى أن الافتقار إلى المياه يأتي بنتائج فاجعة على كافة الجبهات: فالأسر لا تستطيع أن تطهو طعاماً صحياً أو أن تعيش بطريقة صحية أو أن تحتفظ بحدائق للخضروات أو أن تقوم بتربية الحيوانات. والنساء يضطررن إلى المشي مسافات طويلة لجلب المياه. وإذا كانت البنت لا تستطيع الوصول إلى المياه فإنها لن تتمكن من غسل زيها المدرسي ولن تستطيع التردد على المدرسة، فالبنات الأخريات سيضحكن عليها إذا كان زيها متسخاً. ونحن بحاجة إلى المياه طوال الوقت. فهي في غاية الأهمية، وأحياناً تتعرض لإهمال شديد.

ولماذا تشعرين بالحاجة إلى القيام بهذه الأمور دون انقطاع ؟

في البداية، كانت المسألة ترجع إلى ما لدي من حب للاستطلاع، حيث كنت أريد أن أعرف. ولكن الأمر يتصل اليوم بما أشعر به من ارتياح عندما أضطلع بعمل مفيد. ومما يسعدني أن أقابل عدداً لا حد له من الناس، وذلك يدعم من سيرتي الذاتية، بالطبع، وهذا هو ما تقوله فاطمة وهي تضحك.

وتقول فاطمة أيضاً إن أهم شيء هو أنك لا تعرف إطلاقاً من هو الذي ستتغير حياته بفضل ما تأتيه من أمور صغيرة. وهذا هو ما يدفع فاطمة إلى المضي في المسيرة، وهي تتحدث بشأن مزيد لا ينقضي من المشاريع، ولا تستطيع التوقف عن التفكير في هذه المشاريع وتصور المستقبل القادم.

و كيف تنظرين إلى نفسك إذن بعد عشرين سنة ؟

أريد أن أكون أخصائية نفسية، وزوجة، وأماً متفوقة، وآمل أيضاً أن أكون كاتبة، وعاملة في حقل التنمية بكل تأكيد. وقد أقوم كذلك بتنظيم المشاريع وإنتاج مستحضرات التجميل... وسوف يكون بوسعي أن أقوم بالعمل بشكل يزيد عما أعمله الآن. وإني أدرك أنني أبذل كل ما أستطيع اليوم من أجل تغيير حياة الآخرين، وأتصور أنني سوف اضطلع بنفس الأمر بعد عشرين عاماً ولكن على مستوى أوسع نطاقاً. ولا أحب أن أرى الناس يعانون من الافتقار إلى الغذاء أو الرعاية الصحية أو التعليم أو المياه.

وتحكي فاطمة قصة امرأة من مدينة مجاورة لم تستطع أن تصحب طفلها إلى الطبيب، فالجفاف قد أتى على المحاصيل وهي لا تمتلك ٢٠ سنتاً من سنتات الولايات المتحدة كي تدفع تكلفة دراجة بخارية تعمل بالأجر. وعندما تمكنت من تدبير المال اللازم وعرض ابنها على الطبيب، كان الطفل مشرفاً على الموت، وعادت الأم إلى مسكنها وهي تحمل جثته فوق ذراعيها.

وهذا يحدث في عام ٢٠٠٩ في قلب مدننا. ولماذا يموت الطفل من جراء تعذر الوصول للرعاية الصحية والغذاء والمياه النظيفة ؟ وماذا سنفعل في المستقبل ؟ وماذا نفعل الآن ؟

الفقـــر
تغير المناخ والأهداف الإنمائية للألفية

سيكون تأثير تغير المناخ من أشد ما يمكن على حياة الفقراء. وفي الوقت الذي ستتفاوت فيه تأثيرات تغير المناخ حسب الموقع الجغرافي، فإن الفقراء سيكونون هم الأشد ضعفاً في الأماكن المعرضة للتأثر، فهم أقل وصولاً للمصادر الاقتصادية والاجتماعية، من قبيل التعليم والمدخرات الخاصة وإمكانية التنقل، وثمة حاجة إلى كل هذا في ميدان التكيف مع ما يتوقع من تأثيرات وتغييرات.

والآثار المتعلقة بمعيشة الفقراء ومستويات القدرة على التكيف مع التغيرات المنتظرة تختلف بالطبع إلى حد كبير– وستكون هناك أعداد من السكان الذين تغيرت حياتهم تماثل أعداد من يعيشون في إطار الفقر بتلك المناطق التي تعرضت لآثار تغير المناخ. وفي المدن، سيصبح الفقراء أكثر وهناً إزاء المشاكل الصحية، التي تترتب على زيادة موجات الحرارة وتدهور نوعية هواء المدن، بالإضافة إلى الأمراض المعدية من قبيل الملاريا وحمى الضنك والكوليرا، إلى جانب الإصابات التي تنقلها الحيوانات القارضة في أعقاب الفيضانات أو حالات الجفاف[1]. وفي المناطق الريفية، ستكون أعمال الزراعة والصيد على نطاق صغير مهددة بالتغيرات المتوقعة فيما يتصل بالأمطار والفصول الجافة والمطيرة ودرجات الحرارة. والعمال الفقراء بالمدن، الذين يعملون عادة في القطاع غير الرسمي، سيتعرضون لارتفاعات في درجات الحرارة ولموجات حرارية أيضاً، حيث أنهم كثيراً ما ينفقون ساعات طويلة في مرافق تفتقر إلى ما يكفي من وسائل التهوية أو مرافق الصحة. والفقراء الذين ينزحون من جراء آثار تغير المناخ، والذين كثيراً ما ينتهي بهم الأمر في المناطق الحضرية، قد يواجهون صعوبات في الحصول على عمل ما.

وغالبية البلدان النامية لديها قدرات أقل شأناً فيما يتعلق برصد رؤوس الأموال والموارد البشرية اللازمة للاستجابة على نحو مسبق لتغير المناخ، وذلك بالقياس إلى البلدان المتقدمة النمو. وأكثر البلدان ضعفاً تقع في المناطق المدارية وشبه المدارية، مما يعني أن بعض الآثار المتوقعة والأشد عنفاً سوف تستهدف تلك البلدان الأقل استعداداً[2]. ومع هذا، فإن المجتمعات والمناطق المحلية ذات القدرات الكبيرة ستكون متسمة بالضعف أيضاً[3].

ومن بين الفقراء، يتوقع للنساء أن يواجهن عواقب أكثر صعوبة بالقياس إلى الرجال، مما يرجع إلى ما لهن من مركز اجتماعي ـ اقتصادي منخفض نسبياً وازدياد اتكال النساء على الموارد الطبيعية في اكتساب رزقهن. وهذا ينطبق بصفة خاصة على الأسر المعيشية التي ترأسها امرأة بمفردها، والتي لا تمتلك سوى أصول قليلة[4]. وثلثا فقراء العالم من النساء، كما أن النساء يشكلن ٧٠-٨٠ في المائة من العمال الزراعيين. وعلاوة على هذا، فإن النساء ينفقن وقتاً أقل في الأماكن العامة، ومن ثم، فإنهن ليس لديهن نفس القدر من استعداد الرجال، وهذا الاستعداد ضروري لمجابهة الكوارث المفاجئة، مما يفضي إلى وفاة أو إصابة أعداد غير متناسبة من النساء في الكثير من الحالات[5]. وبالتالي، فإنه ينبغي لاستراتيجيات التكيف والتخفيف أن تتضمن اهتماماً خاصاً بالنساء والبنات وتمكينهن، مما يتوقف جزئياً على وصولهن لمرافق الصحة الإنجابية.

وفي إطار تعرض سكان العالم للمخاطر من جراء وجود جيل ضخم ممن تقل أعمارهم عن ٢٥ عاماً، يلاحظ أن ثمة حاجة، لا إلى مجرد إعداد الشباب لمواجهة ما سوف يحدث مستقبلاً من آثار، بل أيضاً إلى إشراكهم اليوم في تجهيز أنفسهم ومجتمعاتهم. والشباب الفقراء كثيراً ما لا تكون لديهم إمكانيات كافية للوصول إلى التعليم والغذاء والصحة، بما في ذلك الصحة الإنجابية، والشبكات الاجتماعية المستقرة من قبيل الأسر المباشرة، وهذا يجعلهم أشد ضعفاً. وجيل الشباب اليوم أكثر إقامة بالحضر عما مضى، وفي الكثير من المدن نجد أن الشباب سيضعفون من مركز أعداد غير متناسبة من ساكني الأحياء الفقيرة[6]. وفي ظل بذل جهود كافية، يمكن لشباب الحضر أن يكونوا من العناصر الفاعلة القوية على صعيدي التكيف والتخفيف، فالمدن تقدم الفرص اللازمة، سواء من حيث كسب الرزق أم من حيث العيش على نحو سليم بيئياً. ورغم ذلك، فإن هذا يتطلب إعطاء اهتمام خاص لاحتياجات شباب الحضر.

ومادام المجتمع العالمي يتسم بالتخلف عن المعدل اللازم للوفاء بخطط التنمية المتفق عليها، من قبيل الأهداف الإنمائية للألفية، فإن تأثيرات تغير المناخ على البلدان النامية والسكان الفقراء قد تكون أكثر شدة مما ينبغي، فالفقر يفاقم من ضعف الشعوب والبلدان إزاء تغير المناخ[7]. وعلاوة على هذا، فإن عدم التكيف مع آثار تغير المناخ وتخفيف تلك الآثار قد يزيد من حدة الفقر في البلدان الفقيرة بالفعل، مما سيؤدي، على المدى الطويل ومن بين أمور أخرى، إلى الإمعان في تقليل الخدمات الاجتماعية، وخاصة خدمات الصحة الأساسية، بما فيها الصحة الإنجابية، وكذلك إلى إنقاص التقدم المحرز في تلك الجهود المبذولة بهدف تحقيق وصول الجميع للصحة الجنسية والإنجابية، وهذا هو المقصد الثاني الذي يتعين بلوغه في إطار الهدف الخامس من الأهداف الإنمائية للألفية، وهو الهدف المتعلق بصحة الأمهات. وثمة احتمال حقيقي، في هذه الأيام، لتقلص بعض ما أحرز من تقدم على صعيد الجهود المضطلع بها بغية الوصول للأهداف الإنمائية للألفية، وذلك من جراء تغير المناخ[8].

في المواجهة: الشباب وتغير المناخ

القصص السبع الواردة في هذا التقرير تشكل تصورات في غاية الواقعية لما قد سيحدث لملايين الشباب خلال العقود القادمة ، إذا لم يجر الحد من تغير المناخ ، وإذا لم يكن هناك تصد للأسباب الجذرية لهذا التغير . ومن المحتمل إلى أمد بعيد أن تكون الآثار ذات الصلة من أسوأ ما يمكن بالنسبة للشباب الذين يعيشون في إطار الفقر ، كما أن مستوى الاهتمام المولى لاحتياجات الشباب ، الذين يواجهون تغير المناخ على نحو مباشر ، هو الذي سيحدد كيفية تطور معيشتهم .

والتقارير المتعمقة لمارجوري ومريم وميسياس وكيلوم ومنديسا ويونس وفاطمة تشكل أمثلة لكيفية تأثر أفكار وأحلام وأعمال الشباب بتغير المناخ . ومن الملاحظ في ، الواقع ، أن الشباب من جميع أنحاء العالم مهتمون بتغير المناخ ، ابتداء من الغابات العميقة في منطقة الأمازون ، والأقاليم القاحلة بالنيجر ، والشعب المرجانية والجزر القائمة بالمحيط الهادئ ، إلى المناقشات الرفيعة المستوى التي تجرى تمهيداً لانعقاد مؤتمر الأمم المتحدة المعني بتغير المناخ بكوبنهاغن في كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٩ . وحيث إن الشباب يواجهون تحديات تغير المناخ ، فإنه توجد حاجة كبيرة إذن لمساندة هؤلاء الشباب وتدعيمهم فيما يسعون إليه جاهدين من صون ثروة وتنوع كوكب الأرض لصالحهم وصالح الأجيال القادمة من بعدهم .

وحيث إن السكان الأكثر ضعفاً يعيشون بالبلدان النامية ، فإن مناظير الفقر تعد أمراً أساسياً لدى استهداف تجهيز الشباب بالوسائل اللازمة للتكيف مع آثار تغير المناخ وتخفيف تلك الآثار . ومن ثم ، فإن الحد من الفقر وتحسين الصحة على صعيد الشباب سيقلل من ضعفهم إزاء تغير المناخ . ومن الشروط الأساسية لإعداد الشباب

> "ينبغي للشباب أن يكون بوسعه الاستفادة من التقدم المحرز فيما يتصل باتباع أساليب للمعيشة تكون أكثر مواتاة للمناخ ، في إطار من مساندة تقدم التكنولوجيا".

من جيل اليوم لمواجهة المستقبل ، توفير التعليم وفرص العمالة والوصول إلى الخدمات الصحية بما فيها خدمات الصحة الإنجابية وإزالة الأضرار المحتملة . وهذا يكتسب أهمية خاصة بالنسبة للشباب المقيمين في المدن ، صغيرة كانت أم كبيرة ، فثمة أعداد متزايدة من سكان العالم مركزة في المناطق الحضرية .

وفي الوقت الذي يعد فيه الحد من الفقر أمراً أساسياً ، يراعى أن النمو وتكوين الثروات لابد لهما أن يتحققا بوسائل جديدة . وليس من الجائز للتنمية أن تتم على حساب تلك الزيادة المطردة في انبعاثات غازات الدفيئة ، كما أن البلدان المتقدمة النمو لا يمكن لها أن تظل على نفس مستويات الانبعاثات السائدة في يومنا هذا . وفي حالة مواصلة إحداث تغير في المناخ من خلال الأخذ بأنماط الإنتاج والاستهلاك ، التي تهيئ من نفس الانبعاثات القائمة أو تزيد منها ، فإن هذا يعني احتمال تخطينا للنقطة الحرجة المتصلة بقدرات التخفيف الطبيعية والبشرية . ومن حسن الحظ ، أن ثمة طرقاً أخرى للمعيشة قائمة ، وهي قابلة للتطبيق حيثما وجدت . وينبغي للشباب أن يكون بوسعه الاستفادة من التقدم المحرز فيما يتصل باتباع أساليب للمعيشة تكون أكثر مواتاة للمناخ ، في إطار من مساندة تقدم التكنولوجيا .

ولابد أن يكون هناك تسليم من قبل الحكومات وراسمي السياسات والباحثين والجهات المانحة والمنظمات الدولية بأنه يجب إعطاء الشباب دوراً حاسماً في ميدان التكيف مع تغير المناخ والتخفيف منه . ومن الحري بالحكومات وهيئات وضع السياسات أن تشجع مشاركة الشباب على جميع مستويات المناقشات الدائرة بشأن موضوعي التكيف والتخفيف ، فالشباب هم الذين سينفذون ما يتقرر اليوم ، كما أنهم هم الذين سيعيشون في سياق العواقب الحادثة . وينبغي للباحثين أن يصوغوا بيانات وتحليلات عن كيفية تأثر الشباب وماهية الاستجابات المثلى ، فغالبية التصورات المتعلقة بالآثار لا تتعرض لإجراء تحليلات محددة بشأن الشباب .

ومن الضروري للجهات المانحة أن تسلم بأن العالم يضم اليوم جيلاً من الشباب لم يسبق له مثيل من حيث كثرة العدد ، وأن تتخذ الخطوات اللازمة لاستغلال هؤلاء الشباب باعتبارهم من عوامل التغيير . ويجب على المنظمات الدولية أن تؤيد بقوة مسألة تمكين الشباب على جميع مستويات السياسات والبرامج المتصلة بتغير المناخ . وخليق بالشباب أن يكوّنوا شبكات لهم وأن ينظموا أنفسهم لدى مواجهتهم لتحديات تغير المناخ . وفي حالة قيام العناصر الفاعلة الرئيسية في حقل التنمية بمساندة الشباب بهذه الطرق المقترحة ، يلاحظ أن الشباب ذاتهم سيصبحون أكثر استعداداً للاضطلاع بدورهم وللمساهمة في الاستجابة لتغير المناخ ، سواء اليوم أم غداً . وعلينا أن نعزز التزام الشباب بتلك المهمة الملحة المتمثلة في تغير المناخ . وإذا لم نقم ، نحن الكبار ، بهذا ، فإن الخطر سيحدق بنا جميعاً .

الحواشـــي

مقدمة

١ الفريق الحكومي الدولي المعني بتغير المناخ ، ٢٠٠٧: تغير المناخ ٢٠٠٧: تقرير تجميعي

٢ الفريق الحكومي الدولي المعني بتغير المناخ ، ٢٠٠٧: تغير المناخ ٢٠٠٧: تقرير تجميعي

٣ المنتدى الإنساني العالمي ، ٢٠٠٩: تقرير عن الأثر الإنساني: تغير المناخ ـ تشريح أزمة صامتة

٤ صندوق الأمم المتحدة للسكان ، ٢٠٠٧: حالة سكان العالم ٢٠٠٧ ، إطلاق إمكانات النمو الحضري

٥ برنامج الأمم المتحدة للمستوطنات البشرية ، ٢٠٠٩: مبادرة المدن وتغير المناخ. البداية وتقرير المؤتمر

٦ R. Fernandes – Castilla, L.Laski & S. Schellekens, 2008: Young People in an Urban World in G. Martine, G. McGranahan, M. Montgomery & R. Fernandez-Castilla (ed.), The New Global Frontier. Urbanization, Poverty and Environment in the 21st Century

٧ R. Fernandes – Castilla, L.Laski & S. Schellekens, 2008: Young People in an Urban World in G. Martine, G. McGranahan, M. Montgomery & R. Fernandez-Castilla (ed.), The New Global Frontier. Urbanization, Poverty and Environment in the 21st Century

مارجوري

١ منظمة الأمم المتحدة للأغذية والزراعة ، ٢٠٠٩: حالة المصائد ومزارع تربية الأسماك في العالم لسنة ٢٠٠٨

٢ Bates, B.C., Z.W. Kundzewicz, S. Wu and J.P. Palutikof, Eds., 2008: Climate Change and Water. Technical Paper of the Intergovernmental Panel on Climate Change, IPCC Secretariat, Geneva

٣ Dobson A, Cattadori I, Holt RD, Ostfeld RS, Keesing F, et al., 2006: Sacred Cows and Sympathetic Squirrels: The Importance of Biological Diversity to Human Health. PLoS Med 3(6): e231. doi:10.1371/journal.pmed.0030231

٤ P. Hotez, A. Fenwick, L. Savioli, D. Molyneux, 2009: Rescuing the bottom billion through control of neglected tropical diseases, The Lancet, Volume 373, Issue 9674, Pages 1570-1575

٥ منظمة العمل الدولية ، ٢٠٠٩: فلنتح فرصة للبنات ، ومعالجة عمالة الطفل تمثل مفتاحاً للمستقبل.

٦ صندوق الأمم المتحدة للسكان ، ٢٠٠٧: البنات يستحققن العطاء اليوم وغداً ، وكسر حلقة حمل المراهقات.

مريم

١ الفريق الحكومي الدولي المعني بتغير المناخ ، ٢٠٠٧: تغير المناخ ٢٠٠٧: تقرير تجميعي

٢ منظمة الأمم المتحدة للأغذية والزراعة ، ٢٠٠٣: جنس المرء وإدارة الأراضي الجافة

٣ منظمة الأمم المتحدة للأغذية والزراعة ، ٢٠٠٣: جنس المرء وإدارة الأراضي الجافة

٤ الصندوق الدولي للتنمية الزراعية ، ٢٠٠٨: التصحر

٥ الصندوق الدولي للتنمية الزراعية ، ٢٠٠٨: التصحر

٦ اتفاقية الأمم المتحدة لمكافحة التصحر ، ٢٠٠٨ ، صحيفة الوقائع ٣. عواقب التصحر

٧ منظمة الأمم المتحدة للأغذية والزراعة ، ٢٠٠٣: جنس المرء وإدارة الأراضي الجافة

٨ Bates, B.C., Z.W. Kundzewicz, S. Wu and J.P. Palutikof, Eds., 2008: Climate Change and Water. Technical Paper of the Intergovernmental Panel on Climate Change, IPCC Secretariat, Geneva

ميسياس

١ منظمة الأمم المتحدة للأغذية والزراعة ، ٢٠٠٩: حالة الغابات في العالم ٢٠٠٩

٢ المجلس الاقتصادي والاجتماعي التابع للأمم المتحدة ، ٢٠٠٩: العمل على عكس اتجاه فقدان الغطاء الحرجي ، ومنع تدهور الغابات بجميع أنواعها ومكافحة التصحر ، وخاصة في البلدان ذات الغطاء الحرجي المحدود

٣ منظمة الأمم المتحدة للأغذية والزراعة ، ٢٠٠٩: حالة الغابات في العالم ٢٠٠٩

٤ الفريق الحكومي الدولي المعني بتغير المناخ ، ٢٠٠٢: تغير المناخ والتنوع البيولوجي ، الوثيقة التقنية الخامسة الصادرة عن الفريق

٥ الفريق الحكومي الدولي المعني بتغير المناخ ، ٢٠٠٢: تغير المناخ والتنوع البيولوجي ، الوثيقة التقنية الخامسة الصادرة عن الفريق

٦ الفريق الحكومي الدولي المعني بتغير المناخ ، ٢٠٠٢: تغير المناخ والتنوع البيولوجي ، الوثيقة التقنية الخامسة الصادرة عن الفريق

٧ الفريق الحكومي الدولي المعني بتغير المناخ ، ٢٠٠٧: تقرير تجميعي ، موجز من أجل مقرري السياسات

٨ منظمة الأمم المتحدة للأغذية والزراعة ، ٢٠٠٩: حالة الغابات في العالم ٢٠٠٩

٩ منتدى الأمم المتحدة المعني بالغابات (٢٠٠٩): ورقة مناقشة ساهم بها الفريق الرئيسي المعني بالأطفال والشباب

كيلوم

١ Bates, B.C., Z.W. Kundzewicz, S. Wu and J.P. Palutikof, Eds., 2008: Climate Change and Water. Technical Paper of the Intergovernmental Panel on Climate Change, IPCC Secretariat, Geneva, 210 pp.

٢ Bates, B.C., Z.W. Kundzewicz, S. Wu and J.P. Palutikof, Eds., 2008: Climate Change and Water. Technical Paper of the Intergovernmental Panel on Climate Change, IPCC Secretariat, Geneva, 210 pp

٣ Francis X. Hezel, S.J., 2009: High Water in the Low Atolls, Micronesian Counselor – Issue 76. The Micronesian Seminar, Pohnpei

٤ Bates, B.C., Z.W. Kundzewicz, S. Wu and J.P. Palutikof, Eds., 2008: Climate Change and Water. Technical Paper of the Intergovernmental Panel on Climate Change, IPCC Secretariat, Geneva, 210 pp

٥ Bates, B.C., Z.W. Kundzewicz, S. Wu and J.P. Palutikof, Eds., 2008: Climate Change and Water. Technical Paper of the Intergovernmental Panel on Climate Change, IPCC Secretariat, Geneva, 210 pp

منديسا

١ المنتدى الإنساني العالمي ، ٢٠٠٩: التقرير المتعلق بالآثار البشرية: تغير المناخ – تشريح أزمة صامتة

٢ Bates, B.C., Z.W. Kundzewicz, S. Wu and J.P. Palutikof, Eds., 2008: Climate Change and Water. Technical Paper of the Intergovernmental Panel on Climate Change, IPCC Secretariat, Geneva

٣ الفيضانات ـ صحيفة المخاطر التقنية ـ صورة الكوارث الطبيعية ، http://www.who.int/hac/techguidance/ems/floods/en/index.html ، بالرجوع إليه في ٢٧ حزيران/يونيه ٢٠٠٩

٤ الأعاصير المدارية ـ صحيفة المخاطر التقنية ـ صورة الكوارث الطبيعية http://www.who.int/hac/techguidance/ems/tropical_cyclones/en/index.html ، بالرجوع إليه في ٢٧ حزيران/يونيه ٢٠٠٩

٥ Ramchandran,D. and Gardner, R., 2005: Coping with Crises: How Providers Can Meet Reproductive Health Needs in Crisis Situations. Population Reports, Series J, No. 53. Baltimore, Johns Hopkins Bloomberg School of Public Health, The INFO Project

٦ منظمة الأمم المتحدة للأغذية والزراعة ، ٢٠٠٦: جنس المرء: العنصر المفقود في الاستجابة لتغير المناخ

يونس

١ E. Piguet, 2008: Climate Change and Forced Migration. Research Paper No. 153. United Nations High Commissioner for Refugees, Geneva.

٢ المنظمة الدولية للهجرة ، ٢٠٠٩: موجز للسياسات بشأن الهجرة وتغير المناخ والبيئة

٣ E. Piguet, 2008: Climate Change and Forced Migration. Research Paper No. 153. United Nations High Commissioner for Refugees, Geneva.4

٤ D. Kniveton, K. Schmidt-Verkerk, C. Smith and R. Black, 2008: Climate Change and Migration: Improving Methodologies to Estimate Flows. .International Organization for Migration, Geneva

٥ صندوق الأمم المتحدة للسكان ، ٢٠٠٦: حالة سكان العالم ، الطريق إلى الأمل: النساء والهجرة الدولية

فاطمة

١ اتفاقية الأمم المتحدة الإطارية المتعلقة بتغير المناخ ، ٢٠٠٧: آثار تغير المناخ وجوانب الضعف والتكيف في البلدان النامية

٢ البنك الدولي وبرنامج الأمم المتحدة الإنمائي وآخرون ، ٢٠٠٣: الفقر وتغير المناخ. تقليل ضعف البلدان النامية من خلال التكيف

٣ الفريق الحكومي الدولي المعني بتغير المناخ ، ٢٠٠٧: تغير المناخ ٢٠٠٧: تقرير تجميعي

٤ اتفاقية الأمم المتحدة الإطارية المتعلقة بتغير المناخ ، ٢٠٠٧: آثار تغير المناخ وجوانب الضعف والتكيف في البلدان النامية

٥ المنتدى الإنساني العالمي ، ٢٠٠٩: التقرير المتعلق بالآثار البشرية: تغير المناخ ـ تشريح أزمة صامتة

٦ صندوق الأمم المتحدة للسكان ، ٢٠٠٧: حالة سكان العالم ٢٠٠٧: النمو حضرياً

٧ اتفاقية الأمم المتحدة الإطارية المتعلقة بتغير المناخ ، ٢٠٠٧: آثار تغير المناخ وجوانب الضعف والتكيف في البلدان النامية

٨ برنامج الأمم المتحدة الإنمائي ، ٢٠٠٨: تقرير الأهداف الإنمائية للألفية لعام ٢٠٠٨

يدعم صندوق الأمم المتحدة للسكان . وهو وكالة إنمائية دولية ، حق كل امرأة ورجل وطفل في التمتع بحياة تتسم بالصحة وبتكافؤ الفرص . ويقوم الصندوق أيضاً بدعم البلدان في استخدامها للبيانات السكانية اللازمة لسياسات برامج مكافحة الفقر وللبرامج التي تمكِّن من أن يكون كل حمل مرغوباً ، وكل ولادة مأمونة ، وكل شاب وشابة خالياً من فيروس نقص المناعة البشرية/الإيدز ، وكل فتاة وامرأة تُعامل بكرامة واحترام .

صندوق الأمم المتحدة للسكان ـ لأن كل شخص مهم

صندوق الأمم المتحدة للسكان
United Nations Population Fund
220 East 42nd Street
New York, NY 10017
U.S.A.
www.unfpa.org

USD $15.00
ISBN 978-0-89714-967-9
رقم المبيع: A.09.III.H.2
A/4,200/2009

مطبوع على ورق صعاد استعماله .

51500
9 780897 149679